دكتور يوسف القرضاوي

التربية الإسلامية
ومدرسة حسن البنا

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الدكتور يوسف القرضاوي

التربية الإسلامية
ومدرسة حسن البنا

« بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على
استشهاد الإمام حسن البنا »

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أرأيتَ إلى الأرض الخاشعة الهامدة ، يُنزِل الله عليها الماء ، فتهتز وتربو وتحيا بعد موتها ، وتنبت من كل زوج بهيج !

كذلك كانت الأمة الإسلامية فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى ، وقبل ظهور حركة الإخوان المسلمين : دُمِّرت الخلافة ، وهى آخر مظهر للتجمع تحت راية العقيدة الإسلامية ، ومُزِّق الوطن الإسلامى شر ممزق بين براثن المستعمرين ، من بريطانيين وفرنسيين وغيرهم ، حتى هولندا التى لم تكن تتجاوز بضعة ملايين. كانت تحكم نحو مائة مليون فى أندونيسيا ! وعُطِّلت أحكام الإسلام ، واتُخِذَ القرآن مهجوراً ، وسيطرت القوانين الوضعية والتقاليد الغربية ، والقِيَم الأجنبية على حياة المسلمين ، وبخاصة الطبقة المثقفة منهم ، نتيجة لهيمنة الاستعمار الكافر على أزِمّة التعليم والتوجيه والتأثير ، فتخرجت أجيال ، تحمل أسماء إسلامية ، وعقولاً أوروبية .

وانضم هذا الفساد الذى وفد مع الاستعمار الدخيل ، إلى الفساد الذى خلّفته عصور الانحطاط والتخلف ، فازداد الطين بلّة ، والداء علّة .

وشاء الله الذى تكفّل بحفظ القرآن ، وبقاء الإسلام ، وإظهاره على الدين كله ، أن يجدد لهذا الدين شبابه ، ويعيد لجسد هذه الأمة الهامد روحه وحياته من جديد . فكانت دعوة الإخوان المسلمين ، وكان حسن البنا مؤسس هذه الحركة « الكبرى » التى مضى عليها خمسون عاماً تركت فيها « بصمات » وآثاراً فى كل مجال وفى كل مكان ، داخل العالَم الإسلامى وخارجه .

ولستُ أكتب هذه الصحائف مؤرخاً لحركة الإخوان ومبلغ تأثيرها فى الحياة المصرية والعربية والإسلامية ، فهذا جهد ينوء به فرد مهما تكن قدرته ووسائله . وإنما هو واجب الجماعة الذى فرّطت فيه حتى اليوم ، وإن كانت الضربات المتلاحقة التى أصابت الجماعة فى كل العهود ، تجعل لها بعض العذر لا كله .

إنما أكتب هنا عن جانب واحد من جوانب هذه الحركة الضخمة ، وهو : جانب التربية ، كما فهمه الإخوان من الإسلام ، وكما طبّقوه .

ولستُ أحاول هنا الاستقصاء والإحاطة ، وإنما أكتفى بإبراز المعالم ، وإعطاء الملامح ، التى تكفى لإيضاح فكرة الجماعة عن التربية وجهودها فى ممارستها ، ونقلها إلى واقع حى يتمثل فى بَشر أحياء .

ولا يخفى على دارس أو مراقب أن حركة الإخوان تمثل - فى الدرجة الأولى- مدرسة نموذجية ناجحة للتربية الإسلامية الحقة ، وأن أهم ما حققته هو تكوين جيل مسلم جديد ، يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ، ويؤمن به إيماناً عميقاً ، ويعمل به فى نفسه وأهله ويجاهد لإعلاء كلمته ، وتحكيم شريعته ، وتوحيد أُمته .

وقد ساعد على هذا النجاح جملة عوامل :

١ - إيمان لا يتزعزع بأن التربية هى الوسيلة الفذّة لتغيير المجتمع ، وبناء الرجال ، وتحقيق الآمال . وكان إمام الجماعة الشهيد حسن البنا يعلم أن طريق التربية بعيدة الشقة ، طويلة المراحل . كثيرة المشاق . ولا يصبر على طولها ومتاعبها إلا القليل من الناس . من أُولى العزم . ولكنه كان يعلم كذلك علم اليقين ، أنها وحدها الطريق الموصلة ، لا طريق غيرها ، فلا بديل لها ، ولا غِنَى عنها . وهى الطريق التى سلكها النبى ﷺ ، فكوّن بها الجيل الربانى النموذجى الذى لم تر عين الدنيا مثله ، والذى تولى بعد ذلك تربية الشعوب وقيادتها إلى الحق والخير .

٢ - منهاج للتربية محدد الأهداف ، واضح الخطوات ، معلوم المصادر ، متكامل الجوانب ، متنوع الأساليب ، قائم على فلسفة بيِّنة المفاهيم ، مستمَدة من الإسلام دون سواه .

٣ - جو جَماعى إيجابى هيَّأته الجماعة ، من شأنه أن يعين كل أخ مسلم على أن يحيا حياة إسلامية عن طريق الإيحاء والقدوة والمشاركة الوجدانية والعملية ، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، ضعيف بمفرده ، قوى بجماعته ، فالجماعة قوة على الخير والطاعة ، وعصمة من الشر والمعصية ، وفى الحديث : « يد الله مع الجماعة » ، « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

٤ - قائد مرب بفطرته ، وبثقافته ، وبخبرته . وهبه الله شحنة إيمانية نفسية غير معتادة ، أثَّرت فى قلوب مَن اتصل به ، وأفاض من قلبه على قلوب مَن حوله ، وكان أشبه بـ « المُوَلِّد » أو « الدينامو » الذى ملأ منه الآخرون « بطاريات » قلوبهم . والكلام إذا خرج من القلب دخل القلوب بغير استئذان ، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان . فصاحب القلب الحى هو الذى يؤثر فى مستمعيه ومزيديه . أما صاحب القلب الميت فلا يستطيع أن يُحيى قلب غيره ، ففاقد الشئ لا يعطيه ، وليست النائمة كالثكلى .

٥ - عدد من المربين المخلصين ، الأقوياء الأمناء ، آمنوا بطريقة القائد ، ونسجوا على منواله ، أثروا فى تلاميذهم ، ثم أصبح هؤلاء أساتذة لمن بعدهم .. وهكذا .

ولست أعنى بالمربين هنا : خريجى المعاهد العليا للتربية ، أو حملة الماچستير والدكتوراة فيها ، وإنما أعنى أُناساً ذوى « شحنة » عالية من الإيمان ، وقوة الروح ، وصفاء النفس ، وصلابة الإرادة ، وسعة العاطفة ، والقُدرة على التأثير فى الآخرين .. وربما كان أحد هؤلاء مهندساً أو موظفاً بسيطاً أو تاجراً أو عاملاً ، ممن لا علاقة له بدراسة أصول التربية أو مناهجها .

٦ - وسائل مرنة متنوعة ، بعضها فردى ، وبعضها جَماعى ، بعضها نظرى ، وبعضها عملى ، بعضها عقلى ، وبعضها عاطفى ، بعضها إيجابى ، وبعضها سلبى ، من دروس إلى خُطب ، إلى محاضرات ، إلى ندوات ، إلى أحاديث فردية ، ومن شعارات تُحفظ ، إلى هتافات تُدَوِّى ، إلى أناشيد تُؤثِّر

بكلماتها ولحنها ونغمها .. ومن لقاءات دورية لمجموعات مختارة في البيوت على القراءة والثقافة والعبادة والأخوة . سميت كل مجموعة منها « أسرة » إيحاءً بمعنى الألفة والمودّة بين أبناء العائلة الواحدة ، إلى لقاءات أخرى في شُعبة الجماعة غالباً ، موعدها الليل ، تتجدد فيها العقول بالثقافة ، والقلوب بالعبادة ، والأجسام بالرياضة ، وسميت هذه « الكتيبة » إيحاءً بمعنى الجهاد ، إلى غير ذلك من الوسائل والطرائق التي تهدف إلى بناء الإنسان المسلم المتكامل .

وكل تربية إنما تتكيف بحسب الغاية منها حتى في الحيوانات ، فالبقرة التي تُربَى للبن ، غير التي تُربَى للحم ، غير التي تُربَى للحرث .

وكذلك الإنسان والتربية . فتربية الإنسان الوجودي ، غير تربية الإنسان الشيوعي ، وهما غير تربية الإنسان البورجوازي ، أو الرأسمالي ، وكلها غير تربية الإنسان المسلم . وتربية المسلم التقليدي غير تربية المسلم الإيجابي .. تربية المسلم في مجتمع يحكمه القرآن ، وتسيطر عليه تعاليم الإسلام ، غير تربية المسلم في مجتمعات تصطرع فيها الجاهلية والإسلام ، ويتنازعها الكفر والإيمان ، والتحلل والالتزام .

أجل .. إن تربية المسلم الذي يكتفي من الإسلام بالصلاة والصيام والذكر والدعاء ، وإذا ذُكِرَ أمامه حال الإسلام والمسلمين اقتصر على الحوقلة والاسترجاع ، غير تربية المسلم الذي يغلي صدره غيرة على الإسلام ، كما يغلي القدْر فوق النار ، ويذوب قلبه أسى على المسلمين كما يذوب الملح في الماء . ثم يُحوِّل ذلك الأسى وتلك الغيرة إلى قوة دافعة للعمل ، وانطلاقة باعثة على التغيير .

هذا هو المسلم المنشود ، الذي لا يستسلم للواقع بل يعمل على تغييره كما أمر الله ، ولا يعتذر بالقضاء والقَدَر ، بل يؤمن بأنه هو قضاء الله الغالب ، وقَدَره الذي لا يُرَد . إنه المسلم الذي يعمل لإقامة رسالة ، وبناء أمة ، وإحياء حضارة .

« رسالة امتدت طولاً حتى شملت آماد الزمن ، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة » [1] .

وأمة خصَّها الله بخير كتاب أنزل ، وأعظم نبى أرسل ، جعلها خير أمة أخرجت للناس ، وجعلها أمة وَسَطاً فى كل شئ ، وأهَّلها للأستاذية والشهادة على الناس .

وحضارة ربانية إنسانية عالَمية أخلاقية ، جمعت بين العلم والإيمان ، ومزجت بين المادة والروح ، ووازنت بين الدنيا والآخرة ، وحفظت للإنسان خصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان .

كانت تربية هذا المسلم هى المهمة الأولى لحركة الإخوان ، لأنه هو وحده أساس التغيير ، ومحور الصلاح والإصلاح . ولا أمل فى استئناف حياة إسلامية ، أو قيام دولة إسلامية ، أو تطبيق قوانين إسلامية ، بغيره .

وكان للتربية الإسلامية فى فهم الإخوان وتطبيقهم خصائص بارزة ، ومميزات ظاهرة أهمها : التأكيد على الربانية .. التكامل والشمول .. الاعتدال والتوازن .. الإيجابية والبناء .. الأخوة والروح الجَماعية .. التميز والاستقلال . وسنحاول هنا أن نخص كُلاً منها بحديث ، بقدر ما يتسع المقام .. وبالله التوفيق .

د . يوسف القرضاوى

* * *

---

(١) من كلمات الشهيد حسن البنا فى مقاله « من وحى حِراء » بجريدة الإخوان المسلمون اليومية .

الرَّبَّانِيَّة

الجانب الربانى أو الإيمانى فى التربية الإسلامية كما فهمها الإخوان وطبَّقوها هو أهم جوانب التربية وأشدها خطراً وأعمقها أثراً ، وذلك لأن أول هدف للتربية الإسلامية هو تكوين الإنسان المؤمن .

والإيمان فى الإسلام ليس قولاً يُقال ولا دعوى تُدَّعى ، إنما هو حقيقة يمتد شعاعها إلى العقل فيقتنع ، وإلى العاطفة فتجيش ، وإلى الإرادة فتتحرك وتُحرِّك ، إنه كما جاء فى الأثر : « ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل » ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [(1)] ، ليس الإيمان فى الإسلام مجرد معرفة ذهنية محضة كمعرفة المتكلمين والفلاسفة ، ولا مجرد تذوق روحى مجنَّح كتذوق المتصوفة ، ولا مجرد سلوك تعبدى كسلوك النساك والمتزهدين . إنه مجموع هذا كله سالماً من الشطط والإفراط والتفريط ، مضافاً إليه إيجابية تعمر الأرض بالحق ، وتملأ الحياة بالخير ، وتقود الإنسان إلى الرُشد .

لقد حاول الإخوان فى تربيتهم أن يجمعوا ما فرَّقه المتكلمون والصوفية والفقهاء من عناصر الإيمان الحق ، وأن يجددوا ما أبلاه المسلمون فى الأعصر الأخيرة من معانى الإيمان الحق ، فعادوا إلى المنابع الصافية يستمدون منها حقيقة الإيمان الذى يجب أن يُربَى عليه الإخوان . إيمان الكتاب العزيز والسُنَّة المطَّهرة ، بشُعبه التى بلغت بضعاً وستين أو بضعاً وسبعين ، وألَّف فيه الحافظ البيهقى كتاب « شُعب الإيمان » .

---

(1) الحجرات : ١٥

إيمان الصحابة ومَنْ تبعهم بإحسان من سَلَف الأمة الذين شمل إيمانهم اعتقاد القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح وصبغ إيمانهم حياتهم كلها فى المسجد وفى البيت وفى المجتمع ، فى الخلوة والجلوة ، وفى الليل والنهار ، فى العمل للدنيا وفى العمل للآخرة . امتاز الإيمان فى تربية الإخوان بهذا الامتداد وبهذا العمق ، وامتاز كذلك بحيويته النابضة ، وقوته الدافعة ، وحركته الفعَّالة ، إنه شعلة تتأجج ، وتيار يتدفق ، ونور يضئ ، ونار تحرق .

وعماد التربية الربانية هو القلب الحى الموصول بالله تبارك وتعالى ، الموقن بلقائه وحسابه ، الراجى لرحمته ، الخائف من عقابه ، فحقيقة الإنسان ليست فى هيكله المادى والأجهزة والخلايا والعظام والعضلات ، إنما هى فى تلك اللطيفة الربانية التى تسكن هذا الهيكل ، وتحركه وتأمره وتنهاه ، إنها المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب . القلب أو الروح أو الفؤاد - سمه ما شئت - هو ذلك الكائن الواعى الذى يصل الإنسان بأعماق الحياة ، وأسرار الوجود ، وينتقل به من الأرض إلى السماء ، ومن الكون إلى المكوِّن ، ومن عالَم الفناء إلى عالَم الخلود .

القلب الحى هو موضع نظر الله تعالى ، ومهبط تجلياته وأنواره « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » ، وهو المستند الوحيد الذى يقدمه العبد لربه يوم القيامة وسيلة للنجاة ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١) ، وبدون هذا القلب العامر بالإيمان ، المشرق باليقين ، يكون الإنسان ميتاً وإن عدَّه الإحصاء فى الأحياء ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٢) .

من أجل هذا عمدت التربية الإخوانية إلى إحياء القلوب حتى لا تموت ، وعمارتها حتى لا تخرب ، وترقيقها حتى لا تقسو ، فإن قسوة القلب وجمود

---

(١) الشعراء : ٨٨ - ٨٩

(٢) الأنعام : ١٢٢

العين عقوبة يُستعاذ بالله من شرها ، ولهذا ذم الله بنى إسرائيل فقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (١) وفى موضع آخر خاطبهم فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (٢) . وعاتب الله أهل الإيمان فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) .

وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع . وكانت رسائل الأستاذ البنا ومقالاته وأحاديثه العامة فى المركز العام ، والخاصة فى لقاءات الأسر والكتائب والشُعَب - دائمة الطَرْق لأبواب القلب الإنسانى حتى يتفتح على معرفة الله ، ويرجوه ويخشاه ، وينيب إليه ويتوكل عليه ويوقن بما عنده ويأنس بحبه والرضا عنه ، ويسكن إلى قُربه ، ويطمئن بذكره ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٤) .

وبهذا يستسهل القلب المؤمن الصعب ، ويستمرئ المر ، ويستعذب العذاب ، ويستهين بالمتاعب والمشقات ، بل يستلذها ما دامت لله وفى سبيل الله ، كما يستلذ كل محب متاعب رحلته وينسى جوعه وظمأه ، إذا كانت الغاية والعاقبة لقاء الحبيب ، على نحو ما ذكر ابن القيم رحمه الله :

لها أحـاديث مـن ذكـراك تشغلها   عـن الطعام وتلهيهـا عـن الزاد

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها   روح القـدوم فتحيا عنـد ميعاد

وقلب الإنسان كجسمه يحتاج إلى ثلاثة أشياء :

(أ) إلى وقاية ليسلم .   (ب) وإلى غذاء ليحيا .

(جـ) وإلى علاج ليشفى .

---

(١) المائدة : ١٣   (٢) البقرة : ٧٤

(٣) الحديد : ١٦   (٤) الرعد : ٢٨

وأول ما يجب وقاية القلب منه ، وإعطاؤه المصل الواقى من شره ، هو : حب الدنيا ، فهو رأس كل خطيئة ، وأصل كل داء ، والمصل الواقى منه هو اليقين بالآخرة ، وتذكر مثوبة الله ، والموازنة بين تفاهة ما عندنا وعظمة ما عند الله - إن جازت الموازنة بين الفانى والباقى - ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ، وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (١) .

وحسب المؤمن أن يقرأ هذا الموازنة أو المفاضلة صريحة واضحة فى كتاب ربه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢) .

وهناك وراء هذه الشهوات المادية - شهوات البطون والفروج ، وحب المال والبنين - ما هو أشد خطراً وهو شهوات القلوب ، وأهواء النفوس ، والهوى شر إله عُبِدَ فى الأرض ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٣) .

شهوة الجاه وحب السيطرة ، والتأله على خلق الله ، وابتغاء الشُهرة والمحمدة ، والسعى وراء تصفيق العامة ، أو تملق الخاصة ، وما إلى ذلك هى الوباء القتَّال الذى يصيب القلوب فيعميها ويصمها ، أو يوبقها ويقتلها . وهى التى سماها الإمام الغزالى فى إحيائه : « المهلكات » اهتداءً بالحديث النبوى الذى قال : « ثلاث مهلكات : شُح مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

ومن المؤسف أن كثيرين لم يلتفتوا إلى هذه المهلكات المعنوية للأفراد والجماعات ، ووجهوا كل اهتمامهم إلى المهلكات الظاهرة من السرقة والزنا وشرب الخمر ، وهى من الموبقات قطعاً ، ولكنها أقل ضرراً ، وأيسر خطراً .

---

(١) النحل : ٩٦ (٢) آل عمران : ١٤ - ١٥ (٣) القصص : ٥٠ .

والحقيقة أن وراء كل هذه الموبقات الحسيّة داءً نفسياً عَلمه مَنْ عَلمه وجهله مَنْ جهله . ومن ثَمَّ اهتمت الدعوة من أول يوم بتخليص النفوس من شوائبها الدنيوية ، وجعلها للّه قبل كل شئ ، وقطع أطماع النفس عن كل مغنم أو مظهر دنيوى لا يغنى عند اللّه شيئاً ، واتجهت إلى الربانية بكل قوتها ، وعبّأت لها الأفكار والمشاعر ، كما هيّأت لها المناخ والوسائل .

كان هذا الجانب الإيمانى أو الربانى يحتل فى مناهج التربية الإخوانية مساحة واسعة ، وينال اهتماماً بالغاً ، فالدعوة دعوة ربانية قبل كل شئ ، والدعوات الربانية إنما توجه وجهها إلى اللّه وحده ، وتجعل رضاه غاية المراد :

إذا صح منك الود فالكل هيِّنٌ ... وكل الذى فوق التراب تراب

واللّه تعالى لا ينظر إلى الصور ، ولكن إلى القلوب ، ولا يجازى بحجم العمل الظاهر ، ولكن بالإخلاص الذى وراءه . فاللّه تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والرياء هو الشرك الخفى . فهو سبحانه لا يحب العمل المشترَك ، ولا القلب المشترِك ، العمل المشترَك لا يقبله ، والقلب المشترِك لا يقبل عليه : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) . ولا غروَ أن جعلت شعارها « اللّه أكبرَ وللّه الحمد » وجَعَلت أولَ هتافاتها التى تلقنها لأتباعها وتغرس بها فى عقولهم وعواطفهم أهدافها ومفاهيمها الكبرى : اللّه غايتنا .

وفى رسالة التعاليم يجعل الشهيد البنا الركن الثانى من أركان « البيعة » بعد « الفهم » المنشود للإسلام فى حدود « الأصول العشرين » المشهورة هو « الإخلاص » ويفسر الإخلاص بقوله : « أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده وجه اللّه تعالى وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو تعب أو تقدم أو تأخر . وبذلك يكون جندى فكرة وعقيدة

---

(١) الكهف : ١١٠ .

لا جندى غرض ومنفعة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ (١) .

والعارفون بأمراض القلوب وآفات النفوس يعلمون أن من أخطر ما يتعرض له المشتغلون بالدعوة الإفتتان بالشُهرة ، والتطلع إلى الصدارة وحب الظهور والزعامة . ولهذا حذّر الرسول الكريم من حب الجاه والمال ومن الشرك الخفى ، وهو الرياء ، ونوّه القرآن والسُنّة بالمخلصين الذين يعملون ما يعملون « ابتغاء وجه الله » لا يريدون من أحد جزاءً ولا شكوراً ، وأشاد الرسول بالمسلم الإيجابى الصامت الذى يؤدى واجبه وهو غامض فى الناس لا يُشار إليه بالأصابع وقال : « رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبّره » و « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة » ورحم الله خالداً سيف الله ، الذى عمل قائداً فأحسن ، وعمل جندياً فما فرّط ولا قصّر .

وقد أكد الإخوان فى تربيتهم هذه المعانى ، وحذّروا كل التحذير من حب الظهور الذى طالما قصم الظهور .

لقد كان من ثمرات هذه التربية أن ظهر فى الجماعة كثير من الجنود المجهولين ، أو كما سماهم الحديث النبوى الذى رواه الترمذى : « الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يُفتقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا » وأن وجدنا رجالاً فيهم قبس من الأنصار : يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع .

كم من رجال بذلوا من أموالهم وأنفسهم دون أن يذكروا أسماءهم ، أو يقرعوا الطبول لأشخاصهم ، وكم من شباب قاتلوا فى فلسطين والقناة وقدّموا من روائع البطولات دون أن يلتمسوا من أحد جزاءً أو شكوراً ، ودون أن يعلنوا عن أنفسهم أو يذكروا ما صنعوه خشية أن يُحبَط عملهم بالعُجْبِ أو الغرور .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

وكان بعد ذلك على الحركة أن تعمل على غذاء القلوب بعد وقايتها . وغذاء القلوب إنما يتم بدوام الصلة بالله تعالى ، والقيام بذكره وشكره وحسن عبادته

من هنا كان من المقوِّمات الأساسية التى قامت عليها التربية الربانية الإخوانية : العبادة لله تعالى . فهى الغاية الأولى من خلق المكلَّفين ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ [1] والعبادة - بالمعنى العام - اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال ، ولكنَّا نقصد به هنا العبادة بالمعنى الخاص ، وهو التنسك والتقرب لله تعالى بإقامة شعائره وذكره وشكره .

ومن العناصر الأساسية التى حرص الإخوان عليها فى العبادة :

١ - التزام السُنَّة ، واجتناب البدعة ، فإن كل بدعة ضلالة ، وقد ألَّف فى هذا الأخ الجليل الشيخ سيد سابق كتابه « فقه السُنَّة » وقدَّم له الإمام الشهيد ، وأثنى عليه . وقبل ذلك نشر فقرات منه فى مجلة الإخوان الأسبوعية ، والكتاب يعتمد على الأدلة الشرعية ، ويمثل الاتجاه الفقهى للإخوان .

٢ - الاهتمام بالفرائض ، فإن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدَى الفريضة . وفى الحديث القدسى الذى رواه البخارى : « ما تقرَّب إلىَّ عبدى بشئ أحب إلىَّ من أداء ما افترضته عليه » فلا تهاون ولا تساهل فى ترك الفريضة بحال .

٣ - الترغيب فى صلاة الجماعة ، فهى إما فرض عين أو فرض كفاية أو سُنَّة مؤكدة على اختلاف المذاهب ، ولهذا حين ذهب الإخوان إلى معتقل الطور ، سرعان ما جعلوا فى كل قسم منه مسجداً . يجتمعون فيه لكل صلاة ، كما يؤدون فيه فريضة الجمعة ، ولا زلتُ أذكر صوت الشيخ محمد الغزالى وهو يؤمنا فى كل صلاة ، ويقنت فى الركعة الأخيرة داعياً : « اللّهم فُكَّ بقوتك أسرنا ، واجبر برحمتك كسرنا ، وتولّ بعنايتك أمرنا . اللّهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ... » .

---

(١) الذاريات : ٥٦

٤ - الترغيب فى التطوع ، ففى الحديث القدسى السابق : « وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ... » وكم نشأ فى رحاب هذه الدعوة رجال صوَّامون قوَّامون ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ (١) وصفهم الناس كما وصفوا الصحابة وتابعيهم من قبل بأنهم : رهبان الليل وفرسان النهار . وقال شاعرهم بلسانهم فى نشيد « هو الحق » أو نشيد « الكتائب » الذى يحفظه الجميع :

رقاق إذا ما الدُّجَى زارنا ... غمـرنا محاريبنا بالحزن

وجنـد شداد ، فمن رامنا ... لبأس رأى أُسـداً لا تهن

وفى هذا وضع الأستاذ المرشد رسالة « المناجاة » بيَّن فيها فضل التهجد والصلاة فى الأسحار ومنزلة الدعاء والاستغفار ، وما ورد فى ذلك من آيات وأحاديث وآثار . وطالما أشاد - رحمه الله - بمتعة التعبد فى جوف الليل ، والقيام لله والناس نائمون ، والسهر فى طاعته والناس فى لهوهم غارقون ، وبكاء الصالحين من خشية الله حيث يضحك المفرِّطون . وطالما تمثل بقول الشاعر فى مناجاة ربه :

سهرُ العيونِ لغيرِ وجهكَ باطلٌ ... وبكاؤهـنَّ لغيـرِ فقدكَ ضائعُ

وقول الآخر :

إنَّ قلباً أنـتَ ساكنـه ... غيـر محتـاج إلى السُرُج

وجهـك المأمـول حُجَّتنا ... يـوم يأتـى الناس بالحُجَج

أثرت هذه المعانى والتأكيد عليها فى عقول الإخوان وقلوبهم ، فنشأ جيل ربانى يسهر ليله لله ، ويظمئ نهاره لله ، لا يمنعه برد الشتاء عن القيام ، ولا هجير الصيف عن الصيام ، لأنه يجد فى عبادة ربه نشوة ، وفى طاعته لذَّة ،

---

(١) السجدة : ١٦

وفى الوقوف بين يديه سعادة ، كتلك التى عبَّر عنها أحد الصالحين قديماً بقوله : « لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف » .

وما برحتُ أذكر صفوف المتهجدين فى معتقل الطور ، حيث كان يمر بعض الإخوان فى الثلث الأخير من الليل ينادى بصوت مؤثر :

يا نائماً مستغرقاً فى المنام — قم فاذكر الحى الذى لا ينام

مـــولاكَ يدعـــوك إلى ذِكره — وأنت مشغـــول بطيب المنام !

هناك يستيقظ النائم ، ويخف المتثاقل ، وينهض المتكاسل ، ليتعرض لنفحات الله فى هذا الهزيع المبارك من الليل عسى أن تناله بركة « المستغفرين بالأسحار » .

إن مدرسة الليل - بما فيها من صلاة ودعاء وقرآن وترتيل ، وبما تهيئ للأرواح من زاد ، وللقلوب من عتاد - هى التى تُخَرِّج المسلم الذى يحتمل أعباء الرسالة ، وميراث النبوة بقوة وأمانة كما حملها النبى الكريم ، الذى خاطبه الله منذ إشراقة الدعوة فى عهدها المكى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (١) .

وفى هذه المدرسة - مدرسة الليل والقرآن - تخرَّج شباب ربانيون أعادوا لنا سيرة السَلَف من جديد .. رأينا من هؤلاء الشباب الربانيين مَن التزم صيام الاثنين والخميس طوال حياته ، نفعنا اللّه بهم ، ومَنْ ظل على هذه السُنَّة وهو فى ميدان الجهاد عملاً بقول النبى ﷺ : « مَنْ صام يوماً فى سبيل اللّه ، إلا باعدَ اللّه بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً » (رواه البخارى وغيره) .

ولقد أصيب مرة أحد هؤلاء الإخوة المجاهدين فى يوم صيامه ، فجئ له وهو فى النزع الأخير بشربة ماء ، فقال لهم : دعونى ، إنى أريد أن ألقى ربى وأنا صائم !

---

(١) المزمل : ١ - ٥

٥ – الترغيب فى ذكر الله : فالله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١) . وخير الذِكر تلاوة القرآن كلام الله الحكيم ، فلتاليه بكل حرف عشر حسنات . ومن وصايا الإخوان أن يكون لكل أخ ورد يومى يتلوه من كتاب الله ، وأن يحرص على حسن التلاوة بمعرفة أحكام التجويد ، وأن يقرأه بتدبر وتأمل ، فلو أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كُلِمَ به الموتى لكان هذا القرآن .

وأنواع الذِكر وصيغه كثيرة منها : التسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير ، والدعاء ، والاستغفار ، والصلاة على النبى ﷺ .

وقد حرصت التربية الإخوانية على التزام الذِكر بالمأثور فى هذا كله لعدة أمور :

١ – أنَّ الصيغ المأثورة لا تدانيها صيغة أخرى لا فى مضمونها ولا فى أسلوبها ، فهى آية من آيات الله فى الشمول والبلاغة والوضوح وقوة التأثير . وهذا من بركات النبوة .

٢ – أنَّ كلام غير المعصوم قد يدخله شئ من الغلو أو التقصير ، وبهذا يكون عُرضة للقيل والقال ، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

٣ – أنَّ فى الذِكر بالمأثور أجرين : أجر الذِكر ، وأجر الاتباع . ولا يليق بالعاقل أن يضيع أجر الاتباع بلا مسوغ .

ومن ثَمَّ عني الإمام الشهيد بوضع رسالة تشمل مجموعة من الأذكار والأدعية الواردة فى السُنَّة سماها « المأثورات » اقتبسها من مثل « الأذكار » للإمام النووى ، و « الكلم الطيب » لشيخ الإسلام ابن تيمية .

ولا يكاد أخ من الإخوان إلا وعنده هذه الرسالة ، وقَلَّ مَنْ لا يحفظها ويردد أذكارها صباح مساء . ومن الإخوة مَن اتخذ لنفسه وسيلة تذكره بكل دعاء فى

---

(١) الأحزاب : ٤١ – ٤٢

مناسبته ، ففى غرفة النوم علّق لوحة فيها أذكار النوم واليقظة ، وفى حجرة الطعام يُعلّق أخرى فيها أدعية الأكل والشرب ، وعند الباب دعاء الدخول والخروج ، وفى سيارته دعاء الركوب ، وهكذا ..

ومن الوسائل التى ابتكرها الإخوان لإيقاظ الشعور الدينى ، وتنمية الوازع الذاتى ، وتغليب النفس اللّوامة على النفس الأمّارة بالسوء : ما سمى بـ « جدول المحاسبة » وهو جدول مطبوع يتضمن أسئلة موجهة من الإنسان إلى نفسه ، وعليه أن يجيب عنها بـ « نعم » أو « لا » ليعرف مدى محافظته أو تقصيره . ويكون ذلك عندما يأوى إلى فراشه ، ليتبين حصيلة يومه . وهذه المحاسبة تتم بينه وبين نفسه ، لا رقيب عليه إلا اللّه تعالى .

من هذه الأسئلة :

هل أديتَ الصلوات فى أوقاتها ؟

هل أديتها فى جماعة ؟

هل تلوتَ وردك اليومى من القرآن ؟

هل قرأتَ أدعيتك المأثورة ؟

هل زرتَ أخاً لك فى اللّه .. إلخ .. إلخ .

وكان من ثمرات هذه التربية الإيمانية الربانية أن قدّم الإخوان ما قدّموا لأوطانهم وفى سبيل دعوتهم دون أن يمنوا على أحد ، بل اللّه يمن عليهم أن هداهم للإيمان ، وإن صُبَّت عليهم سياط العذاب فى محن متلاحقة فى عهد الملكية ثم فى عهد الناصرية (١٩٤٨ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٥) فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل اللّه وما ضعفوا وما استكانوا . حتى إن منهم مَن نهشته الكلاب ، ومَن شوى ظهره بالحديد المحمى ، ومَن مزقت بدنه الكرابيج ، ومَن قضى فى السجن عشرين عاماً كاملة فى عهد الثورة ، ومنهم مَن قُتِلَ جهرة ضرباً بالرصاص ، كما فى مذبحة ليمان طرة ، ومنهم مَن قُتِلَ خفية بالسياط ،

وهم عشرات يجب أن يُماط عنهم اللثام ، ويعرفهم التاريخ ، ومنهم مَن حُكِمَ عليه بالإعدام شنقاً بغير حق ، فلا هو كفر بعد إسلام ، ولا هو زنى* بعد إحصان ، ولا هو قتل نفساً بغير نفس ، كل ذنبه أن يقول : ربى اللّه ، ودستورى القرآن !!

ليس العجب أن يُذنب الإنسان ، إنما العجب أن يتمادى فى الذنوب ولا يتوب . وقد أذنب آدم فتاب اللّه عليه وغفر له ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١) ولكن إبليس أذنب فلم يُغفر له ، لأنه لم يتب من ذنبه ، ولم يعتذر إلى ربه ، بل أبى واستكبر عن الخضوع للأمر ، وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (٢) على حين قال آدم وزوجه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

كان ذنب آدم وزوجه نتيجة غفلة طارئة ، وشهوة عارضة ، أعقبتها توبة نصوح ، فتقبلها اللّه وتاب عليه . وكان ذنب إبليس نتيجة تمرد على اللّه ورفض لأوامره ، واستكبار عن طاعته ، فطرده اللّه مذءوماً مدحوراً ، عليه اللعنة إلى يوم الدين .

والإخوان بَشر من بنى آدم ، فلا غرابة أن نجد منهم الخطّائين ، الذين يخالفون ما به أُمروا ، أو يرتكبون ما عنه نُهوا ، ولكن خير الخطّائين التوّابون المستغفرون ، وهذا هو العلاج الذى تحتاج إليه القلوب لتشفى :

التوبة النصوح ، والاستغفار الصادق ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالشعور بالذنب ، وخشية العقوبة من الرب ، والتضرع إليه بصدق العبودية ، وذل الاعتراف .

ومع هذا كله وهب الإخوان كل ما أصابهم من أذى ، وما قدّموه من تضحيات للّه جَلّ جلاله . فقد باعوا أنفسهم وأموالهم للّه ، واشترى اللّه تعالى منهم ذلك

---

(١) طه : ١٢١ - ١٢٢ (٢) الأعراف : ١٢ (٣) الأعراف : ٢٣

بأنَّ لهم الجنة ، وهم لم يستقيلوا هذه الصفقة أو يتراجعوا عنها ، ولن يفعلوا إن شاء اللّه ، ولن يقبلوا دون الجنة بديلاً .

ولهذا لم يفكر الإخوان فى الإنتقام ممن سجنوهم وعذَّبوهم وصادروا أموالهم ، وجوَّعوا أُسرهم ، وقتلوا منهم مَن قتلوا سراً وعلانية ، ولم يسمع أحد أنهم اختطفوا واحدا من جلاديهم ، وأطلقوا عليه الرصاص فى عينه اليمنى أو اليسرى ، وكان فى إمكانهم أن يفعلوا لو أرادوا وفيهم المدرَبون الذين أرعبوا اليهود ، وأقضُّوا مضاجع الإنجليز ، ولكن تربيتهم لم تسمح لهم بهذا اللون من التفكير ، بل تركوا خصومهم للّه ، فانتقم منهم واحداً بعد الآخر ، فى الدنيا قبل الآخرة . وما عند اللّه أشد وأخزى . على أنَّ ما يريدونه أكبر وأعمق من الإنتقام من أفراد صغروا أم كبروا .

ولقد قُدِّرَ للإخوان أن يروا بأعينهم مصاير الكثيرين من جلاديهم ، ذلاً وهواناً أو جنوناً وسقاماً أو قتلاً ونكالاً ، حتى إن الأستاذ الهضيبى - رحمه اللّه على كِبَرِ سنه - عاش حتى رأى الذين سجنوه أنفسهم يدخلون السجن معه ومع إخوانه ، غير أنهم دخلوه وهم يبكون بكاء الأطفال ، على حين استقبله الإخوان بابتسامة الأبطال .

ليس معنى هذا أن كل الإخوان كانوا على هذا المستوى من الربانية الصافية ، ولكن أقول بصدق : إن طابع الربانية المشرق كان هو الغالب عليهم ، والمهيمن على أكثرهم ، فالطاعة فيهم هى القاعدة ، والمعصية هى الشذوذ ، فقد شُغِلوا بالآمال الكبيرة عن الشهوات الصغيرة ، وبأحلام الآخرة عن مطامع الدنيا . وبالقضايا العامة عن المنافع الخاصة . ومَن أغواه شيطانه يوماً فزلَّت قدمه ، سرعان ما يستيقظ ضميره ، ويصحو قلبه ، ويرجع إلى باب ربه يقرعه نادماً باكياً تائباً . ولا زلتُ أذكر شاباً كان فى عنفوان شبابه ، قادته غريزته فى لحظة ضعف عارضة ، وغفلة قلب طارئة ، فتورط فى المعصية ، ثم أفاق فجأة ليجد نفسه قد تلوَّث بعد طهارة ، وانحرف بعد استقامة ، وغوى بعد رُشد ، وأحس بمرارة المعصية بعد أن ذاق حلاوة الطاعة ، فاعتكف فى بيته أياماً يبكى على

نفسه ، ويتقلب على جمر الغضا ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه ، فلم يعد يلقى أحداً ، ولا يخرج من حجرته ، حياءً من ربه ، وخجلاً من نفسه ، وفراراً من إخوانه ، مع أن أحداً منهم لم يعلم بما حدث له غيرى ، لولا أن كتبتُ إليه ، أفتح له باب الأمل فى التوبة ، والرجاء فى مغفرة اللّه ، وأُذكِّره بحديث الرسول الكريم : « مَنْ سرته حسنته ، وساءته سيئته ، فهو مؤمن » وقول علىّ : « سيئة تسوءك ، خير من حسنة تعجبك » أى تصل بك إلى درجة العُجْب والغرور بها .

ويقول ابن عطاء اللّه : « ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قدَّر عليك المعصية ، فكانت سبباً فى الوصول . معصية أورثت ذلاً وإنكساراً ، خير من طاعة أورثت عُجْباً واستكباراً » .

* * *

التكامل والشمول

ومن خصائص التربية الإسلامية ، كما فهمها الإخوان وطبّقوها : التكامل والشمول ...

فليست التربية الإسلامية مقصورة العناية على جانب واحد من جوانب الإنسان التى يهتم بكل واحدة منها أهلها والمختصون بها .

إنها لا تضع كل اهتمامها فى الناحية الروحية أو الخُلُقية التى يعنى بها المتصوفة والأخلاقيون .

ولا تقصر كل جهودها على الناحية الفكرية التى يهتم بها الفلاسفة والعقليون .

ولا تجعل أكبر همها فى التدريب والجندية التى يحرص عليها العسكريون .

ولا تحصر نشاطها فى التربية الاجتماعية كما يصنع المصلحون الاجتماعيون .

إنها فى الواقع تهتم بكل هذه الجوانب ، وتحرص على كل هذه الألوان من التربية .

ذلك أنها تربية للإنسان كل الإنسان : عقله وقلبه ، روحه وبدنه ، خُلُقه وسلوكه ، كما أنها تعد هذا الإنسان للحياة بسرّائها وضرّائها ، سلمها وحربها ، وتعده لمواجهة المجتمع بخيره وشره ، حلوه ومره .

لهذا كان لا بد من العناية بالتربية الجهادية ، والتربية الاجتماعية ، حتى لا يعيش المسلم فى واد ، والجماعة من حوله فى واد آخر .

إنه التكامل والشمول الذى تميَّز به الإسلام فى مجال العقيدة ، وفى مجال العبادة ، وفى مجال التشريع ، يتميز به أيضاً فى مجال التربية .

وفى هذه الصحائف سنتحدث بإيجاز عن هذه الجوانب الأساسية ، التى اهتمت بها التربية الإخوانية ، أو بعبارة أدق : التربية الإسلامية كما فهمها الإخوان وطبَّقوها .

أما الجانب الروحى أو الربانى ، فقد أفردناه بالحديث فيما سبق ، واعتبرنا التأكيد عليه جدير أن يكون وحده إحدى خصائص التربية الإسلامية ، بل هى الخصيصة الأولى .

● الجانب العقلى :

وللإخوان عناية كبيرة بهذا الجانب تبعاً لعناية الإسلام نفسه به ، فإن أول آية أنزلها اللّه تعالى على محمد ﷺ هى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (١) .

الإسلام دين يحترم العقل ، ويجعله مناط التكليف ، ومحور الثواب والعقاب ، والقرآن ملئ بمثل هذه الفواصل : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٦) ، ﴿ لأُوْلِى النُّهَىٰ ﴾ (٧) .

فالتكفير فى الإسلام عبادة ، وطلب البرهان واجب ، وطلب العلم فريضة ، كما أن الجمود رذيلة ، والتقليد جريمة .

فالإسلام يريد من المسلم أن يكون على بيِّنة من ربه ، وأن تكون دعوته ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ (٨) ولا يقبل إيمان المقلّد ، ولا يرضى ممن آمن به أن يكون إمعة ، يفكرَ برأس غيره ، ويقاد فينقاد بغير تفكير ولا تبين ، بل الواجب أن يفكر وينظر ويتفقه و « مَن يُرِدِ اللّه به خيراً يفقهه فى الدين » .

---

(١) العلق : ١ — (٢) البقرة : ٤٤ — (٣) الأنعام : ٥٠ .
(٤) النحل : ٦٧ — (٥) يونس : ٢٤ — (٦) آل عمران : ١٩٠ .
(٧) طه : ٥٤ — (٨) يوسف : ٨

فلا غرو أن تكون التربية العقلية لازمة لزوم التربية الإيمانية أو الروحية ، فإن سلوك الإنسان إنما هو صورة من تفكيره وتصوره للوجود وللحياة وللإنسان .

ولهذا جعل الأستاذ البنا « الفهم » أول أركان البيعة ، وقدّمه على الإخلاص والعمل والجهاد والإخوة وغيرها من أركان الدعوة الأصيلة ، لأن الفهم يسبقها جميعاً ، والمرء لا يخلص للحق ، ويعمل له ، ويجاهد فى سبيله إلا بعد أن يعرفه ويفهمه .

والقرآن يجعل العلم سابقاً على الإيمان والإخبات ، وهما نتائج له ، أو متفرعة عنه . قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

وقد جاء فى النظام الأساسى للإخوان فى بيان أغراض الجماعة ، وأهداف الحركة ، أن فى مقدمتها « الغرض العلمى » بشرح دعوة القرآن الكريم شرحاً دقيقاً يوضحها ويردها إلى فطريتها وشمولها ويعرضها عرضاً يوافق روح العصر ويرد عنها الأباطيل والشُبهات .

والغرض الثانى : « الغرض العملى » بجمع القلوب والنفوس على هذه المبادئ القرآنية وتجديد أثرها الكريم فيها .. وأن من وسائلها الدعوة بطريق النشر والإذاعة المختلفة .. والتربية بطبع أعضاء الهيئة على هذه المبادئ وتمكين معنى التدين العملى لا القولى فى أنفسهم أفراداً وبيوتاً .. وتكوينهم تكويناً صالحاً : بدنياً بالرياضة ، وروحياً بالعبادة ، وعقلياً بالعلم .

وهذا ما قامت عليه التربية الإخوانية ، التـى جعلت التكوين العقلى أو الثقافى فى طليعة منهاجها التكاملى .

وتربية الإخوان هنا تقوم على أساس تكوين « عقلية مسلمة » تفهم الدين والحياة فهماً صحيحاً .

---

(١) الحج : ٥٤

ومن هنا لا بد أن يأخذ الأخ المسلم من الثقافة الإسلامية القَدْر الذى يفهم به عقيدته ، ويصحح عبادته ، ويضبط سلوكه ، ويقف به عند حدود الله فى حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، ويستطيع فى ضوئه أن يحكم على الأحداث والأشخاص والمواقف والقضايا بعقلية المسلم ، الذى ينظر من زاوية إسلامية ، ويحكم بمعيار إسلامى .

كما أنه لا بد أن يفهم الحياة من حوله ، كيف تسير ، وكيف تتحول ، وكيف تتأثر ، وما عوامل التسيير والتحويل والتأثير ؟

ولا بد أن يبدأ الأخ بمعرفة المجتمع الصغير الذى يعيش فيه كالقرية أو المدينة ، ثم يتدرج إلى معرفة المجتمع الأوسع كالوطن بالمعنى الجغرافى أو السياسى ، ثم الوطن الكبير - الوطن العربى - من الخليج إلى المحيط ، ثم الوطن الأكبر من المحيط إلى المحيط ، وهو الوطن الإسلامى .

ولا بد أن يعرف التيَّارات المناوئة ، والقوى المعادية ، من اليهودية والصليبية والشيوعية وعملائها فى قلب العالَم الإسلامى ، من العلمانيين والمنحلين والمقلدين والحاقدين والنفعيين .. وغيرهم من عُبَّاد المادة ، وعبيد المناصب .

وهذا ما قامت مناهج التربية الثقافية للإخوان على توفيره وتهيئته ، وأنشئ لذلك قسم الأسرة مستعيناً فى ذلك بكل الأقسام الأخرى ، وكل ذى خبرة فى مجال التربية الإسلامية .

فهم الإخوان الإسلام فهماً جديداً قديماً ..

أما جدته ، فلغرابته على كثير من الناس حتى من أبناء المسلمين أنفسهم ، حتى اعتبروا الإسلام ديناً ودولة ، وعبادة وقيادة ، وروحانية وعملاً ، وصلاةً وجهاداً ، ومصحفاً وسيفاً ، وكما أعلن مؤسس الحركة فى الأصل الأول من أصوله العشرين :

« الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، وهو ثقافة وقانون أو علم

وقضاء ، وهو خُلُق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو مادة وثروة أو كسب وغِنىً ، كما هو عقيدة سليمة ، وعبادة صحيحة سواءً بسواء » .

وكان المفهوم الغربى المسيحى للدين - باعتباره علاقة بين المرء وربه ، وأن مكانه المساجد والزوايا ، وأن لا علاقة له بالدولة والمجتمع - قد سيطر على الكثيرين ، حتى كان من وسائل الطعن فى دعوة الإخوان أنها خلطت بين الدين والسياسة !

كان هذا الفهم للإسلام جديداً على الناس حتى سماه الشهيد حسن البنا : « إسلام الإخوان المسلمين » ولكنه فى الواقع فهم قديم قِدَم الإسلام ذاته ، لأنه فهم الصحابة ومَن تبعهم بإحسان لإسلامهم : إسلام القرآن والسُّنَّة .

لقد ساء فهم المسلمين للإسلام نتيجة لأمرين هامين :

أولهما : رواسب عصور التخلف وما دخل فيها على الإسلام من شوائب ومبتدعات وسوء تصور ، بسبب تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، كما أدى إلى كثير من التشويه لجمال الإسلام ، وتفكيك ترابطه ، واختلال التوازن بين أحكامه وتعاليمه ، فقدَّم ما حقه التأخير ، وأخَّر ما حقه التقديم ، وتضخم ما حقه أن ينكمش ، وتضاءل ما حقه أن يعظم .

وفى هذا المناخ راج التقليد والتعصب المذهبى .

ثانيهما : آثار الغزو الفكرى ، أو الاستعمار الثقافى ، الذى مُنيت به بلاد المسلمين فى عهد الاحتلال الأجنبى ، الذى أدخل فى حياة المسلمين مفاهيم جديدة ، وأفكاراً دخيلة ، روَّجها وثبَّتها عن طريق المؤسسات التربوية والتعليمية ، والأجهزة التثقيفية والتوجيهية .

وكان أشد ما نجح فيه الاستعمار خطراً ، أنه ربَّى وراءه من أبناء المسلمين جمهرة ممن يسمون « المثقفين » صنعهم على عينه ، وغذَّاهم من لُبانه ، وأرضعهم فلسفة حياته ، ولقنهم وجهة نظره ، وملأ عقولهم وقلوبهم إعجاباً بحضارته ، واحتراماً لنُظمه ، وحباً لتقاليده ، ولم يُعَرِّفهم عن دينهم وحضارتهم

وتراثهم إلا القليل فى كميته ، الضعيف فى كيفيته ، التافه فى قيمته ، المتناقض فى مضمونه ، الممسوخ فى شكله وصورته .

ولا غرو أن وجدنا مسلمين يعيشون فى أوطانهم غرباء عنها ، وجوههم وجوه المواطنين العرب المسلمين ، وعقولهم عقول الخواجات الأوروبيين أو الأمريكيين .

وكان على التربية الإخوانية أن تواجه آثار الجهل القديم ، والتجهيل الجديد ، وأن تجتهد فى وضع منهاج متكامل لتثقيف « الأخ المسلم » تثقيفاً يستمد عناصره من ينابيع الإسلام الصافية قبل أن تكدرها الشوائب بالزيادة أو الحذف ، بعيداً عن تعقيدات المتكلمين ، وتكلفات المتصوفين ، واعتراضات المتفقهين .

ولهذا كان القرآن الكريم وتفسيره أول مصادر الثقافة لدى الإخوان ، على أن تفسير السَلَف مقدَّم على غيرهم ، ومن هنا حفلوا بتفسير ابن كثير ، وجعلوه من مراجعهم المفضلة .

وكانت السُنَّة هى المصدر الثانى ، على أن يُرجع فى توثيقها وشرحها إلى أئمة الحديث الثقات .

يقول الإمام الشهيد حسن البنا فى الأصل الثانى من الأصول العشرين : « والقرآن الكريم والسُنَّة المطهَّرة ، هما مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام .

ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية ، من غير تكلف ولا تعسف ، ويُرجع فى فهم السُنَّة ، إلى رجال الحديث الثقات » .

ومن هنا اهتم الإخوان بعلوم القرآن وعلوم الحديث ، ووجَّهوا العناية لبعض كتب الحديث مثل « رياض الصالحين » للإمام النووى ، كذلك اهتم الإخوان بفقه الحديث ، أو فقه السُنَّة ، كما عنوا بدراسة السيرة النبوية وفقهها واستخلاص العِبَر منها ، باعتبارها النموذج التطبيقى للإسلام ، والتفسير العملى للقرآن .

ولم يغفل الإخوان فى تثقيفهم التاريخ الإسلامى ، وسِيَر أبطاله من القادة والعلماء والمصلحين .

ولم ينس المنهاج التربوى للإخوان التيَّارات المعادية ، والقُوَى المناوئة ، دينياً وفكرياً وسياسياً ، كالصهيونية والشيوعية والاستعمار والتبشير والماسونية والبهائية والقاديانية .. وغيرها .

ولا ريب أن شُعَب الإخوان ومراكزهم كانت دوراً للعلم والتوعية الإسلامية الجماهيرية ، كما كانت « أُسرهم » حلقات منظمة للتربية الفكرية ، وقد آتت هذه التربية أُكلها فى قاعدة عريضة من أبناء الشُعَب ، فتحررت عقولهم من الأوهام والخرافات ، وانفتحت أعينهم على قضايا العالَم الإسلامى الكبير ، وخرجت من قمقم الوطنية الضيق ، إلى باحة الإسلامية الرحبة ، وأطلَّت على الثقافة الإسلامية الواسعة وأمهات مراجعها ببصائر نيِّرة ، وعقول مفتوحة .

ولا يخفى أن غلبة اللون الشعبى على جمهور الإخوان ، وغلبة الطابع العاطفى والخطابى على الجمهور المصرى بصفة عامة ، منذ عهد مصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وحاجة الناس فى ذلك الوقت إلى صحوة القلوب ، ويقظة الضمائر ، وعدم وجود أحزاب عقائدية مناوئة لفكرة الإسلام كالشيوعية ونحوها ، وانشغال الجماعة بنشر الدعوة من ناحية ، وبالواقع العملى ومتطلباته من ناحية أخرى ، وتعرضها للمضايقات والاضطهادات منذ عهد مبكر - كل هذا كان له أثره فى التقليل من تعميق الجانب الفكرى - بالقدرالمنشود - لدى كثير من جماهير الإخوان ، وفى تأخير نضوج الطاقات العلمية والفكرية لدى الإخوان إلى أواخر الأربعينات ، وأوائل الخمسينات ، حين شَبَّ الصغير ، ونضج الكبير ، وبرزت المواهب الكامنة .

وقد أدرك الإمام حسن البنا فى أواخر حياته حاجة الجماعة إلى تعميق الجانب الفكرى والعملى لدى أفرادها من جانب ، وإلى توضيح جوانب الإسلام ومقاصده لغير الإخوان من جانب آخر ، فأنشأ مجلة « الشهاب » الشهرية ، لتملأ هذا الفراغ ، وتقوم بهذا الدور ، وتخلف مجلة « المنار » التى توقفت بعد وفاة مؤسسها العلاَّمة السيد رشيد رضا رحمه الله . ولكن لم يُقَدَّر لهذا الوليد

المرتجى أن يستمر أكثر من خمسة أعداد . كان الشهيد حسن البنا يكتب بنفسه جل مادتها . ثم كانت محنة ديسمبر ١٩٤٨ ثم اغتيال صاحب الشهاب فى فبراير ١٩٤٩

* * *

• الجانب الخُلُقى :

ومن أهم جوانب التربية لدى الإخوان : الجانب النفسى أو الخُلُقى ، فقد اشتد اهتمامهم به ، وتأكيدهم عليه ، واعتباره هو المحور الأول للتغيير الاجتماعى ، وكان الإمام الشهيد حسن البنا ، رحمه الله يسميه « عصا التحويل » كالعصا التى تحوِّل اتجاه الترام ونحوه من طريق إلى آخر ، ومن جهة إلى أخرى ، ويردد فى هذا قول الشاعر :

لعمركَ ما ضاقت بلاد بأهلها ولكــن أخلاق الرجال تضيق

وكان يؤمن ويردد : أن أزمة العالم إنما هى أزمة نفوس وضمائر ، قبل أن تكون أزمة اقتصاد وسياسة .

وتحت عنوان « من أين نبدأ » يكتب الشهيد حسن البنا فى رسالته : « إلى أى شئ ندعو الناس » ؟ يقول : « إن تكوين الأمم ، وتربية الشعوب ، وتحقيق الآمال ، ومناصرة المبادئ ، تحتاج من الأمة التى تحاول هذا ، أو من الفئة التى تدعو إليه على الأقل ، إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل فى عدة أمور :

« إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف ، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر ، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل ، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له ، يعصم من الخطأ فيه ، والانحراف عنه ، والمساومة عليه ، والخديعة بغيره .

« على هذه الأركان الأولية التى هى من خصوص النفوس وحدها ، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة ، تبنى المبادئ ، وتتربى الأمم الناهضة ، وتتكون الشعوب الفتية ، وتتجدد الحياة فيمن حُرموا الحياة زمناً طويلاً .

« وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة ، أو على الأقل فقدها قوّاده ودُعاة الإصلاح فيه ، فهو شعب عابث مسكين ، لا يصل إلى خير ، ولا يحقق أملاً . وحسبه أن يعيش فى جو من الأحلام والظنون والأوهام : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ (١) .

هذا هو قانون الله تبارك وتعالى ، وسنته فى خلقه ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

وهو أيضاً القانون الذى عبرَّ عنه النبى ﷺ فى الحديث الصحيح ومعناه : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولينزعنَّ الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ فى قلوبكم الوهن » .

فقال قائل : أوَ من قِلّة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ قال : « لا ، إنكم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

أو لستَ تراه صلى الله عليه وسلم قد بيَّن أن سبب ضعف الأمم وذلّة الشعوب وهن نفوسها ، وضعف قلوبها ، وخلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة ، وصفات الرجولة الصحيحة ، وإن كثر عددها ، وزادت خيراتها وثمراتها .

وجاء المرشد الثانى الأستاذ حسن الهضيبى - رحمه الله - فلم يكن تركيزه على هذه الناحية أقل من الأستاذ البنا ، وله فى ذلك كلمات مأثورة محفوظة ، مثل قوله : « أخرجوا الإنجليز من قلوبكم ، يخرجوا من بلادكم » .

وقوله : « أقيموا دولة الإسلام فى صدوركم ، تقم على أرضكم » .

وهو لا يريد بهذه الكلمات التقليل من شأن العمل أو الكفاح السياسى والعسكرى لإجلاء الإنجليز ، وإقامة دولة الإسلام .

---

(١) النجم : ٢٨ (٢) الرعد : ١١

كيف وقد دفع أبناءه وجنود دعوته إلى الجهاد والاستشهاد على ضفاف القناة والتل الكبير !

إنما يريد أن السر فى كل كفاح ناجح ، يكمن أول ما يكمن فى تلك التهيئة النفسية ، والتعبئة الشعورية ، والتربية الأخلاقية ، التى تغيِّر الأفراد ، فتتغير بها المجتمعات من حال إلى حال ، كما بيَّن ذلك القرآن ، حين قرر تلك السُنَّة الاجتماعية التى لا تتبدل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

والإسلام يعتبر الأخلاق الفاضلة من شُعَب الإيمان ، أو من ثماره اليانعة .

فكما يتمثل الإيمان الإسلامى فى سلامة العقيدة ، وإخلاص العبادة .. يتمثل كذلك فى استقامة الخُلُق .

وفى الحديث : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً » .

والخُلُق أو الأخلاق ، كلمة بعيدة المدى فى مدلولها ، حتى إن الرسول ليحدد مهمة رسالته فيقول : « إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » ، وحتى إن أجمل ما أثنى الله به على رسوله قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .. وقد سئلت السيدة عائشة عن خُلُقه عليه الصلاة والسلام فقالت : كان خُلُقه القرآن . أى أن كل ما جاء به القرآن من فضائل وما أمر به من أوامر ، وما حَثَّ عليه من صالحات الأعمال ، فهو خُلُقه صلى الله عليه وسلم .

ليس الخُلُق إذن هو مجرد لين الجانب ، وحُسن العِشرة ، كما يفهم كثير من عامة الناس ، وإن كان هذا ركناً ركيناً من أخلاق المسلم : « وخالقِ الناس بخُلُقٍ حسن » ، « إنَّ أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » .

---

(١) الرعد : ١١ — (٢) القلم : ٤

وليس الخُلُق مقصوراً على التعفف عن النساء والخمر كما يريد أن يفهم آخرون ، وإن كان هذا من أول ما يحرص عليه الإسلام : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (٢) .

بل يشمل هذا وذاك ، ويشمل ما هو أوسع وأعمق من جوانب الحياة : من ضبط النفس ، والصدق فى القول ، والإحسان فى العمل ، والأمانة فى المعاملة ، والشجاعة فى الرأى ، والعدل فى الحكم ، والصلابة فى الحق ، والعزم على الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحرص على النظامة واحترام النظام ، والتعاون على البرِّ والتقوى .

ومن أهم ما عنى الإخوان بغرسه فى أنفس رجالهم من الفضائل الخُلُقية :

١ - الصبر : سواء أكان صبراً على طول الطريق ، أم على كثرة الأشواك فيه، أم على كثرة قُطَّاعه بطريق الخوف ، أم على كثرة قواطعه بطريق الطمع ، فلا بد من الصبر على هذا كله ، دون مبالاة بإعراض الناس ، أو سخريتهم ، أو تثبيطهم أو إيذائهم واضطهادهم ، ولا سيما أن الصبر هو العُدَّة عند الجهاد ، والذخيرة عند المحن ، والمعين على تكاليف الحق ، حتى قرن الله بين التواصى بالصبر والتواصى بالحق فى آية واحدة : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (٣) . وقال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه : ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٤) .

ولهذا كان دعاء الممتحَنين بتهديد الطغاة : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) النور : ٣٠. (٢) المائدة : ٩٠. (٣) العصر : ٣

(٤) لقمان : ١٧ (٥) الأعراف : ١٢٦

وكان دعاء المقاتلين فى الميدان : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

٢ - الثبات : ومما يتصل بالصبر ويكمله : « الثبات » وقد جعله الأستاذ البنا أحد أركان البيعة العشرة ، وفسّره بقوله :

« وأريد بالثبات ، أن يظل الأخ عاملاً مجاهداً فى سبيل غايته ، مهما بعدت المدة ، وتطاولت السنوات والأعوام ، حتى يلقى الله على ذلك ، وقد فاز بإحدى الحسنيين ، فإما الغاية ، وإما الشهادة فى النهاية : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

« والوقت عندنا جزء من العلاج ، والطريق طويلة المدى ، بعيدة المراحل ، كثيرة العقبات ، ولكنها وحدها التى تؤدى إلى المقصود ، مع عظيم الأجر ، وجميل المثوبة » .

وآفة كثير من المنتسبين إلى الدعوات : قصر النفس ، وضيق النفس . فينقطعون فى وسط الطريق ، أو يرجعون القهقرى ، أو ينحرفون يمنة أو يسرة ، بعد أن بعدت عليهم الشقة ، وثقل عليهم المسير ، وطال عليهم الطريق . .

لهذا كان التأكيد على هذا الخُلُق « الثبات » ضرورياً لأمثال هؤلاء ، حتى يستمروا ولا يتوقفوا أو يرتدّوا . وبخاصة أن النفس مولعة بحب العاجل ، وقد خُلِقَ الإنسان من عَجَل . ومن ثَمَّ قال الله لرسوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (٣) .

وآفة آخرين أنهم يظلون فى الطريق ما دام الريح رخاء ، والسماء صحواً والجو صافياً . فإذا اكفهر الجو ، وتلبدت السماء بالغيوم ، وعصفت الرياح ،

---

(١) البقرة : ٢٥٠ (٢) الأحزاب : ٢٣ (٣) الأحقاف : ٣٥

ضعف احتمالهم ، وانقطع سيرهم ، كالذى وصفه الله بأنه إذا : ﴿ أُوذِىَ فى اللّه جَعَلَ فتْنَةَ النَّاس كَعَذَابِ اللّه ﴾ (١) أو الذى : ﴿ إن أصَابَتْهُ فتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىَ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ (٢) ، وهكذا كل مَنْ يعبد الله على حرف .

وهناك مَنْ يصبر على البلاء ، ويثبت فى الشدائد ، ولكنه يضعف أمام المغريات وأعراض الدنيا ، فإذا عُرِضَ عليه مال ، أو لُوِحَ له بمنصب ، سال له لعابه ، وفقد توازنه ، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل .

والواجب على كل صاحب دعوة أن يكون له فى رسول الله أسوة حسنة حين عرض عليه المشركون ما عرضوا من المال والجاه فى مقابل التنازل عن دعوته . فقال كلمته التاريخية لعمه : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » !

٣ - الأمل : ومعناه : الرجاء فى انتصار الإسلام ، والثقة بأن المستقبل له ، وأن نصر الله قريب ، وإن ادلهمت الخطوب ، وتفاقمت الكروب .

وكان الشهيد البنا ، يؤكد هذا المعنى ويصوغه بأساليب شتَّى ، محارباً ما أشاعه الاستعمار والجهل من يأس قاتل ، وقنوط مدمر ، مذكراً بأن اليأس من لوازم الكفر ، والقنوط من مظاهر الضلال فـ ﴿ إنَّهُ لاَ يَيْأَسُ من رَّوْحِ اللّه إلاَّ القَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضَّالُونَ ﴾ (٤) .

ومن كلماته : « إن حقائق اليوم كانت أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هى حقائق الغد » .

ويذكر أهداف الإخوان وآمالهم الكبرى فى تحرير مصر والعالَم العربى ثم الإسلامى ، ثم توحيده تحت راية الخلافة المنشودة . ثم هداية العالَم كله ، ولا ينسى أن يذكر « العقبات » فى الطريق ، وهى شديدة وهائلة وكثيرة ،

---

(١) العنكبوت : ١٠ .	(٢) الحج : ١١ بلفظ : ﴿ وإن .... ﴾ .
(٣) يوسف : ٨٧	(٤) الحجر ٥٦

ورغم هذا يرى من الحق أن يذكر عوامل النجاح أمام هذه العقبات جميعاً قائلاً : « إننا ندعو بدعوة الله وهى أسمى الدعوات ، وننادى بفكر الإسلام وهى أقوى الفكر ، ونُقدِّم للناس شريعة القرآن وهى أعدل الشرائع ، وإن العالَم كله فى حاجة إلى هذه الدعوة ، وكل ما قد يمهد لها ويهيئ سبيلها ، وإننا بحمد الله براء من المطامع الشخصية ، بعيدون عن المنافع الذاتية ، لا نقصد إلا وجه الله ، وإننا نترقب تأييد الله ونصرته فمَن نصره الله فلا غالب له : فقوة دعوتنا ، وحاجة العالَم إليها ، ونبالة مقصدنا ، وتأييد الله إيانا هى عوامل النجاح التى لا تثبت أمامها عقبة ، ولا يقف فى طريقها عائق ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وفى رسالته إلى الشباب يذكر أهداف الدعوة الكبرى فردية واجتماعية ، محلية وعالَمية ، ثم يقول :

« يا شباب .. لستم أضعف ممن قبلكم ممن حقق الله على أيديهم هذا المنهاج ، فلا تهنوا وتضعفوا ، وضعوا نصب أعينكم قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ (١) .

« سنربى أنفسنا ليكون منا الرجل المسلم ، وسنربى بيوتنا ليكون منها البيت المسلم ، وسنربى شعبنا ليكون منه الشعب المسلم ، وستكون من بين هذا الشعب الحكومة المسلمة ..

« وسنسير بخطوات ثابتة إلى تمام الشوط ، وإلى الهدف الذى وضعناه لأنفسنا ، وسنصل بإذن الله ومعونته : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

« وقد أعددنا لذلك إيماناً لا يتزعزع ، وعملاً لا يتوقف ، وثقة بالله لا تضعف ، وأرواحاً أسعد أيامها يوم تلقى الله شهيدة فى سبيل الله » .

---

(١) آل عمران : ١٧٣ (٢) التوبة : ٣٢

بمثل هذه الروح الدافقة كان يزرع الثقة ، ويبعث الرجاء ، ويُحيى الأمل فى انتصار الإسلام فى نفوس طالما دمرها اليأس والقنوط .

ويؤكد فى حديث له حتمية النصر للإسلام بأربعة أدلة منها :

* الدليل العقلى من الآيات والأحاديث الكثيرة المنتشرة مثل ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (١) ، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ (٢) ، « ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار » ... إلخ .

* الدليل التاريخى ، وهو أن هذا الدين أشد ما يكون قوة ، وأصلب ما يكون عوداً ، حين تحيط به النوائب ، كما فى حرب الردّة ، وحروب الصليبيين ، والتتار ، حتى إن التتار الغالبين يدخلون مختارين فى دين المغلوبين .

* الدليل الحسابى ، فقد كانت قيادة الحضارة يوماً شرقية بحتة على يد الفراعنة والهنود والصين والفُرس ، ثم انتقلت الشُعلة إلى الغرب عن طريق اليونان والرومان ، ثم عادت إلى الشرق عن طريق الحضارة الإسلامية ، ثم انتقلت إلى الغرب الحديث كما نرى اليوم ، وها نحن ننتظر أن تعود إلى الشرق مرة أخرى ، بعد أن أفلس الغرب معنوياً وروحياً ، ودمره صراع النفس ، وصراع البيت ، وصراع المجتمع ، وصراع السلام .

٤ - البذل : وهو من أبرز الأخلاق التى ربى عليها الإخوان ، وقد يُعبَّر عنه بالتضحية ، ونعنى به ألا يبخل الأخ على دعوته بجهد ولا مال ولا وقت ، ولا يدخر وسعاً فى نشرها ومد شعاعها ، وتأييد دعاتها ، ومساعدة أبنائها بالنفس والنفيس ، والغالى والرخيص ، وأن يكون شعار الأخ : أعط ليستفيد غيرك ، وازرع ليحصد الآخرون ، واتعب ليستريح الناس .

وقد استطاع الإخوان بفضل هذا الخُلُق الأصيل - برغم أن أكثريتهم رقاق الحال - أن يقوموا بكل ما تتطلبه الدعوة من نفقات ، وما تستلزمه من

---

(١) التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩ (٢) التوبة : ٣٢

مشروعات ، حتى إن منهم مَنْ باع دراجته ، ليُسهم بثمنها فى بناء دار الإخوان ومسجدهم بالإسماعيلية ، ليذهب بعد ذلك إلى مقر الجماعة كل ليلة ماشياً على قدميه مسافة ستة كيلو مترات ذهاباً ومثلها إياباً . والعجيب أنه فعل ذلك دون أن يذكره لأحد ، لولا أن المرشد الأول رحمه الله لاحظ تأخره عن الموعد المحدد أكثر من مرة ، ويبدى أسفه واعتذاره بأشياء أخرى ، حتى اكتشف السبب الحقيقى ، فأكبر إخوانه موقفه وأبوا إلا أن يشتروا له دراجة جديدة قدّموها هدية إليه ، تقديراً لبذله الكريم ، وشعوره النبيل . واسم الأخ الأوسطى « على أبو العلا » كما فى « مذكرات الدعوة والداعية » .

* * *

● **الجانب البدنى :**

ولم يغفل الإخوان فى تربيتهم الجانب البدنى للأخ المسلم ، فالبدن هومطية الإنسان للوصول إلى أهدافه ، والقيام بأعبائه الدينية والدنيوية ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « إنَّ لبدنك عليك حقاً » .

وهدف الإخوان من هذه التربية :

أولاً : صحة الجسم وسلامته من الأمراض ، فإن لهذه الصحة أثرها فى النفس وفى العقل ، حتى قالوا قديماً : العقل السليم فى الجسم السليم . كما أن الجسم العليل يشل صاحبه عن النهوض بأعبائه . ولهذا كانت العناية بالنظافة والوقاية والعلاج ، ومقاومة العادات الضارة كالسهر الطويل والتدخين وغيرها ، وكان من واجبات الأخ العامل أن يقلل من قهوة البن والشاى ، وأن يمتنع عن التدخين بتاتاً .

ثانياً : قوة الجسم ومرونته ، فلا يكفى السلامة من المرض ، بل يجب أن يكون الجسم قوياً مرناً قادراً على الحركة بسرعة وسهولة . و « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » . ولهذا كان الاهتمام بالتمرينات الرياضية وألعاب القُوَى والعدو والسباحة والرماية وما إليها ، وفى الأثر : « علّموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل » .

ثالثاً : خشونته وتحمله : فلا تكفى صحة الجسم ولا قوته ، ما لم يألف الخشونة ، ويتعود احتمال المشقات ، وركوب المصاعب ، والاستعداد لمواجهة مختلف الظروف من حر وبرد ، وغور ونجد ، وجلوة وفقد ، وقد قيل : « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » .

ولهذا كله اهتم الإخوان بإنشاء الأندية الرياضية ، والفرق الكشفية ، وتهيئة الرحلات والمعسكرات دورية وغير دورية ، للتدريب الجاد على حياة الخشونة والتحمل والصبر على المكاره والمتاعب فى الصحارى والجبال ، ونحت وقدة الشمس ، أو وطأة الزمهرير ، أو سقوط المطر ، مع قِلّة الماء والطعام ، ومع رداءة هذا وسخونة ذاك ، وقد لا يكتفى الإخوة المدربون بهذا ، فيعمدوا إلى وضع الحصى أو الرمل عمداً فى العدس أو الفول ونحوه ، ليكون الأخ المسلم قادراً على مواجهة أى ظرف طارئ ، فقد تعوَّد الشدة ، وألف المشقة .

ولا ريب أن كان لهذه التربية التى بلغت درجة العنف – فى بعض الأحيان – أثرها البين ، وثمارها الدانية ، فى ميادين الجهاد ، حين دقت ساعته ، ودعا داعيه ، فإن الناعمين المترفين لا يصلحون لحمل السلاح ، حين يجد الجد ، إنما يصلح له أُولو العزم والصبر من الرجال .

كما كان لها أثرها فى السجون والمعتقلات ، حيث كان ما يُقدَّم من الطعام والشراب جزءاً من العقاب ، والنوم على الألواح الخشبية المجردة و « الأبراش » لوناً من الثواب ، فالأسفلت هو الأصل ، والإيذاء هو القانون !

* * *

● الجانب الجهادى :

ومن جوانب التربية التى تميزت بها حركة الإخوان : التربية الجهادية - ولا أقول العسكرية – فإن مفهوم « الجهاد » أعمق وأشمل من مفهوم العسكرية .

إن العسكرية انضباط وتدريب ، ولكن الجهاد إيمان ، وأخلاق ، وروح وبذل ، مع الانضباط والتدريب أيضاً .

ولقد كان معنى الجهاد قبل الإخوان شبه غائب عن التربية الإسلامية والحياة الإسلامية ، فالجماعات الدينية صوفية وغير صوفية لا تعيره التفاتاً ، والأحزاب الوطنية إنما تهتم بالكفاح السياسى ، والوعّاظ والمرشدون فى المساجد وغيرها يعتبرون الجهاد خارج حدود مهمتهم الدينية .

فلما ظهرت حركة الإخوان أحيت مفهوم الجهاد ، ونوّهت به ، وجعلت له شأناً أي شأن فى رسائلها وكتبها وفى مجلاتها وجرائدها ، وفى محاضراتها وندواتها ، وفى أشعارها وأناشيدها . واعتبره الإمام البنا أحد أركان البيعة العشرة ، وأحد هتافات الجماعة المعبِّرة عنها : « الجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » .

ومن الوسائل التى اتخذها الإخوان للتذكير بالجهاد : الاحتفال بالمناسبات الإسلامية المتصلة به كالغزوات الكبرى مثل : بدر ، وفتح مكة .. ونحوها .

ومن وسائلهم الخاصة : تقرير كتاب أو أكثر من كتب السيرة النبوية للقراءة والدراسة فى الأسر الإخوانية ، والسيرة إنما هى جهاد متواصل فى سبيل الله ، ولهذا سميت كتب السيرة قديماً : المغازى . وسمى كتاب « الجهاد » فى علم الفقه كتاب « السيَر » .

وكان من أوائل ما قُرِّر على الإخوان حفظه ودراسته من القرآن الكريم : سورة الأنفال ، تأكيداً لهذا المعنى الذى غفل المسلمون عنه .

وكانت ثقافة الإخوان وتربيتهم بصفة عامة ، تنمى فيهم شعور العزّة والكرامة ، وخُلُق البذل والعطاء ، وروح الفداء وحب الاستشهاد ، كما تزرع فيهم معانى الجندية المؤمنة من الطاعة والنظام وإنكار الذات فى سبيل الجماعة .

ولقد برزت هذه المعانى مجسَّمة واضحة يوم نادى المنادى سنة ١٩٤٨ بالجهاد لاستنقاذ فلسطين ، فتعالت الأصوات : أن هبى يا ريح الجنة .. ويا خيل الله اركبى ، فتسابق أبناء الدعوة من كل مكان يريدون أن يحظوا بشرف الجهاد فى الأرض المقدسة ، حتى يدركوا إحدى الحسنيين : النصر على اليهود ، أو الشهادة فى سبيل الله .

وإنى لا أنسى الأخ الحبيب النقى عبد الوهاب البتانونى ، زميل الدراسة فى معهد طنطا الدينى الثانوى ، وشوقه العارم إلى الجهاد فى فلسطين ، حتى أصبح ذلك حلم ليله وشغل نهاره ، وكان يمنعه من تحقيق رغبته الصادقة مانعان :

الأول : أمه التى تحبه كل الحب ، وتحنو عليه أعظم الحنو ، ولا سيما بعد وفاة والده رحمه اللّه ، وهى لا تطيق فراقه بالبعاد فكيف بالموت لو كان ؟ ولهذا لم تأذن له ، ولم ترض عن تطوعه فى كتائب الإخوان ، وهو حريص على برها وإرضائها ، ولا يجب أن ينفر للجهاد بغير رضاها وإذنها ، ولهذا صحبنا إلى والدته لنحدثها عن فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين ، وقصص أبطال المسلمين ، وموقف أمهاتهم منهم ، وما زلنا بها حتى أذنت له - وعيناها تدمعان - بما يحلم به ، ويصبو إليه .

والمانع الثانى : قرار مكتب الإرشاد للإخوان بعدم السماح لطلأب المرحلة الثانوية بالتطوع نظراً لصغر سنهم . وهنا رجانا الأخ البتانونى - رحمة اللّه عليه - أن نسافر من طنطا إلى القاهرة لمقابلة المرشد العام ، والإلحاح عليه لقبوله فى كتائب الجهاد ، وبخاصة أن أمه قد أذنت له . وسافرنا - أنا والأخ أحمد العسال والأخ محمد الصفطاوى - وقابلنا الأستاذ البنا ، وعرضنا عليه الأمر ، وما زلنا به حتى قَبِلَ ووافق على سفره .

وكاد صاحبنا يطير فرحاً لهذه النتيجة ، وذكرنا ذلك لأستاذنا البهى الخولى فقال : إن صفاء عبد الوهاب هو صفاء الشهداء ، وإنى أحس كلما رأيته أرى دم الشهادة يترقرق فى وجهه . وقد كان ، فقد استشهد عبد الوهاب فى عملية بطولية مع اثنين من إخوانه نسفوا بها مخزناً للذخيرة والسلاح بعد أن دخله اليهود ووضعوا أيديهم عليه ، فأشعل الإخوة النار فى صناديق المفرقعات فاستحال فى لحظة واحدة إلى كومة من الأنقاض ، وذهب معه الأبطال الثلاثة إلى عليين .

ولم يكن هذا موقف الشهيد البتانونى وحده ، فكم من شباب هربوا من أسرهم ليدخلوا معسكر التدريب فى هايكستب ، وكم حاول بعض الآباء والأعمام أن يثنوهم عن عزمهم ، ويقنعوهم بالعودة فلم يفلحوا أمام إصرارهم ، فعادوا راضين بالواقع ، مؤمنين بأن روح الإيمان سرى فى أعماق هذا الجيل فغيَّره ، فلم يعد يخاف الموت ما دام فى سبيل الله حتى كان بعضهم يقول : يا قوم .. دعونى ، فإن الجنة تنادينى .

وكم منهم مَنْ تحمَّل أبلغ المشاق ، وركب قطار البضاعة ، أو مشى على قدميه فى صحراء سيناء ليصل إلى قواعد إخوانه المجاهدين .

وكم من رجل باع ما يملك ليشترى بندقية أو مدفعاً ليقاتل به دفاعاً عن أُولى القبلتين .

وكم من زوجة قدَّمت حليها راضية ليبيعها زوجها ليسلح بثمنها نفسه ، وبذلك ساهمت فى الجهاد مرتين : بالتخلى عن أغلى ما تحب ، وبالرضا بفراق أعز مَنْ تحب .

ولا زلتُ أذكر قصة حسن الطويل ، أحد الإخوان المزارعين من مركز بسيون ، وقد سجل اسمه فى كتائب المتطوعين ، تاركاً أهله وزراعته وكل شئ رغبة إلى ما عند الله . ولم يكتف بذلك بل باع جاموسته - وهى للفلاح كرأس المال للتاجر - ليشترى بها سلاحاً يقاتل به دفاعاً عن أرض النبوات . ولما قال له الحاج أحمد البس رئيس المنطقة : يا حسن .. دع الجاموسة للعيال ، وحسبك أنك تطوعتَ بنفسك ، ووضعت روحك على كفك ، وعلى غيرك ممن لم يجاهد بنفسه أن يجاهد بماله . وهنا قال حسن قولة البصير بدينه : هل قال الله تعالى : جاهدوا بأنفسكم ، أم قال : جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ؟ وهل اشترى منا النفس وحدها ، أم النفس والمال جميعاً ليعطينا الجنة ؟ هل نسيتم الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) أم تريدون أن نتسلم البضاعة دون أن ندفع لها الثمن ؟

---

(١) التوبة : ١١١

ولم يملك أحمد إزاء هذا الإيمان والإصرار أن يقول شيئاً ، وسافر حسن مع المقاتلين ، وعاد مع العائدين ، لا ليُكرَّم ويُحتفَى به ، ولكن ليزج به فى المعتقل ، جزاء ما قدمت يداه . فى قتال الصهيونيين ! وكان له مع جلاد الغربية فى وقته الضابط سعد الدين السنباطى موقف يذكر بالفخر والاعتزاز .

هذه الروح العالية الفذّة ، هى التى جعلت اليهود يضطربون رعباً كلما ذُكِرَ اسم الإخوان المتطوعين من قريب ، أو سمعوا صيحاتهم : « الله أكبر » من بعيد .

ولقد قال بعضهم للضابط المجاهد معروف الحضرى حين كان فى الأسر : نحن لا نخاف إلا من هؤلاء الإخوان المتطوعين ! فسأله معروف : ولماذا تخشونهم وعددهم قليل وسلاحهم ضئيل ؟! فقال الضابط الصهيونى فى صراحة : نحن إنما جئنا من بلاد العالم إلى هذه الأرض لنعيش ، وهؤلاء جاءوا إليها ليموتوا ، وما أبعد الفرق بين مَنْ يحرص على الحياة ومَنْ يحرص على الموت .

ولقد كان من المشكلات التى تواجه قيادة المجموعات الإخوانية فى الميدان أنها إذا كلّفت فصيلة أو فرداً بعمل عسكرى ، بقى من الصعب إقناع الفصائل أو الأفراد الآخرين بالبقاء ، فالجميع يتسابقون إلى شرف الجهاد ، وقد لا يحل هذا التنافس إلا القُرعة أو الرضا بالتناوب . وكل فصيلة يقع عليها الاختيار للقيام بهجوم يهلل أفرادها ويُكبِّرون ويهتفون : هبى ريح الجنة .. هبى .

ومما رواه الأستاذ كامل الشريف فى مذكراته التى سماها « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » : أن الشاب المجاهد عبد الحميد خطاب - وهو نجل العالِم المؤمن الشجاع الشيخ بسيونى خطاب - طُلِبَ إليه فى معركة دير العلم أن يبقى بالمعسكر للحراسة ، فثار وبكى وانتحب ، وما زال بالقائد حتى ضمه إلى المقاتلين ، فكان حظه ما كان يتمناه : الشهادة فى سبيل الله .

وما أروع ما سمعتُ من الإخوة المجاهدين ، وكيف كانوا يستقبلون الموت ، بعد أن يدخلوا المعركة مغتسلين متوضئين ، فى قلوبهم الإيمان ، وفى جيوبهم

المصاحف ، وفى أيديهم المدافع ، فإذا أصابت أحدهم رصاصة كبَّر وتشهَّد ، وقال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (١) .

وقد نزلت « دانة » من مدفع على ساق أحدهم فبترته ، فكان إخوانه يبكون ، وهو ينظر إلى ساقه مبتسماً وينشد شِعر الصحابى قديماً :

ولستُ أبالـــى حيـــن أُقتلُ مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فــــى ذات الإلــــه وإن يشأ يُبــارك علـــى أوصال شلـــو ممزع

وفى إحدى المعارك أُصيب قائد الفصيلة وهو الأخ السيد محمد منصور من الشرقية بضربة قاتلة ، فشُغلَ بإصابته عدد من إخوانه عن الهجوم ، فما كان منه إلا أن نهرهم بشدة ، فالمعركة أهم من حياته . ولما حملوه إلى الخطوط الخلفية أفاق من غيبوبته . فكان أول ما سألهم عن سير المعركة ، فأجابوه بما طمأن نفسه ، فابتسم وتمتم : الحمد لله . ولم يزل وهو فى النزع الأخير يدعو الله لدينه وأمته ، ولم يقف لسانه لحظة عن الدعاء : اللّهم انصر دعوتنا ، وحقق غايتنا .. حتى مضى إلى ربه راضياً مرضياً .

إنها أمثلة أعادت إلينا ذكريات العصور الأولى ، وأثبتت أن هذه الأمة لا تزال بخير ، وأن مفتاح شخصيتها هو الإسلام . وهو مصنع بطولاتها ، ومُفجِّر طاقاتها ، وأن التغنى بالقومية أو الوطنية لا يُحرِّك هذه الأمة ويوقظها ما لم يُحركها نداء الإيمان ، وتربية الإسلام .

وقد حكى الأستاذ كامل الشريف فى كتابه « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » من الوقائع والقصص البطولية ما ينبغى أن يروى للأجيال القادمة ليكون عبرة وذكرى ، وإن ذكر أنه لم يسجل إلا تجربته هو .

وقد شهد قادة الجيش المصرى فى حرب فلسطين مثل اللواءين المواوى وصادق أمام المحكمة التى حكمت فى قضية سيارة « الجيب » لفدائيى الإخوان بما يثلج صدور المؤمنين ، ويغيظ الذين فى قلوبهم مرض .

---

(١) طه : ٨٤

قال المواوى : « كان الإخوان ينزعون ألغام اليهود وينسفونهم بها فى صحراء النقب » .

وقال اللواء فؤاد صادق : « كان الإخوان المسلمون جنوداً أبطالاً أدوا واجبهم كأحسن ما يكون » .

وتمت معركة أخرى تجلت فيها بطولة الإخوان المسلمين ، وأثر تربيتهم الجهادية ..

إنها معركة القناة ، وقتال الإنجليز ، وفيها كتب الأستاذ الشريف أيضاً كتابه « المقاومة السرية فى قناة السويس » .

ولا أحسب أحداً ينسى شهداء الإخوان .. وخصوصاً من طُلاَّب الجامعة : عمر شاهين وأحمد المنيسى وعادل غانم ، وغيرهم ممن سطروا بدمائهم الزكية فى معركة التل الكبير وما قبلها وما بعدها أن الحرية لا يمنحها المتسلطون ، إنما يأخذها بدمائهم المجاهدون .

بقى أن أقول هنا : إن الإخوان ، وإن اهتموا بالقتال ومارسوه بالفعل ، وقدَّموا فى ساحاته الشهداء تلو الشهداء من خيرة رجالهم - لم يكن هو كل الجهاد عندهم .

لقد كان مما تعلموه من الإسلام أن مفهوم الجهاد أوسع وأشمل من مفهوم القتال .

فإذا كان قتال الغاصبين والمحتلين لأى جزء من أرض الإسلام فريضة محكمة ، ومقاومة الاستعمار الكافر ، والكفر المستعمر ، واجباً دينياً مقدساً ، فإن جهاد المنافقين والمبتدعين ، وجهاد الظلمة والفجرة واجب لا يقل قداسة عن ذلك . والقرآن الكريم يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٧٣ ، التحريم : ٩

والرسول ﷺ سئل عن أفضل الجهادْ فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر » .

ومعنى هذا أن مقاومة الفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو من الخارج ، كلاهما فريضة ، وكلاهما جهاد .

وقد تحدَّث النبى ﷺ عن الأمراء الظلمة الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، وبين واجب الأمة المسلمة حين تبتلى بحكمهم وتسلطهم فقال : « مَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » يشير إلى أن الجهاد بالقلب - جهاد الكراهية والغضب والنفرة والمقاطعة - هو أضعف مراتب الإيمان ، وهو لمن عجز عن جهاد اللسان كما أن جهاد اللسان لمن عجز عن جهاد اليد .

فالجهاد إذن ليس للكفار فقط ، ولا بالسيف فحسب ، كيف وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [١] ، والمنافقون لا يجاهدون بالسيف ، لأنهم محسوبون ظاهراً فى عداد المسلمين ، وإنما يجاهدون بالبيان والوعظ وإقامة الحُجَّة ، والقول البليغ المؤثر فى النفس . كما قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ [٢] .

وأصرح من ذلك قول الله لرسوله عن القرآن : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ (أى القرآن) جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [٣] وهذا الأمر بالجهاد فى سورة الفرقان ، وهى مكية نزلت قبل أن يؤذن بالقتال فضلاً عن أن يؤمر به .

فهذا الجهاد الكبير هو جهاد الدعوة والثبات على تبليغها ، والصبر على مرارتها ، وتحمل مشاقها ، وطول طريقها ، وهو ما تشير إليه كذلك أوائل

---

(١) التوبة : ٧٣ ، التحريم : ٩ (٢) النساء : ٦٣ (٣) الفرقان : ٥٢

سورة العنكبوت : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

والرسول ﷺ يبيِّن أدوات الجهاد وألوانه فى شأن الكفار فيقول : « جاهدوا المشركين بأيديكم وأموالكم وألسنتكم » .

وفضلاً عن هذا كله .. هناك جهاد النفس حتى تتعلم الإسلام ، وتعمل به ، وتدعو إليه ، وتثبت على طريقه ، حتى تفوز بإحدى الحسنيين .

وجهاد الشيطان الذى يغزو الإنسان من داخله ، عن طريق الشُبهات يُضل بها العقل ، أو الشهوات يغوى بها الإرادة ، فلا بد من مقاومته بسلاح اليقين الذى يطرد الشُبهات ، وسلاح الصبر الذى يهزم الشهوات . وبهذا ينتصر على الشيطان عدو الإنسان فى معركتيه ، ويرتقى إلى مقام الإمامة فى الدين على جناحى الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

هذا هو الجهاد بمعناه الواسع فى الإسلام ، وهو - بالتالى - الجهاد فى فهم الإخوان ، وتربية الإخوان ، وسلوك الإخوان .

يقول شيخ الدعوة حسن البنا فى رسالة « التعاليم » شارحاً معنى الجهاد كما فهمه من الإسلام ، وكما يريده من أتباعه :

« وأريد بالجهاد : الفريضة الماضية إلى يوم القيامة ، والمقصود بقول رسول الله ﷺ : « مَنْ مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية » .

« وأول مراتبه : إنكار القلب . وأعلاها : القتال فى سبيل الله . وبين ذلك جهاد اللسان والقلم واليد وكلمة الحق عند السلطان الجائر .

« ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد ، وبقدر سمو الدعوة ، وسعة أفقها ، تكون عظمة الجهاد فى سبيلها ، وضخامة الثمن الذى يُطلب لتأييدها ، وجزالة الثواب للعاملين : ﴿ وَجَاهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (٣) ا . هـ .

---

(١) العنكبوت : ٦ (٢) السجدة : ٢٤ (٣) الحج : ٧٨

وتربية الإخوان على الجهاد بهذا المفهوم الرحب هو الذى جعلهم يجاهدون فى سبل الفكرة الإسلامية ، جهادهم فى سبيل الأرض الإسلامية ، بل الفكرة هى المضمون والغاية ، والأرض هى الوعاء والوسيلة ، ومن أجل هذا وقفوا فى وجه الطواغيت فى الداخل ، وقوفهم فى وجه الطواغيت فى الخارج ، وقاوموا العلمانيين ، مقاومتهم للغاصبين المعتدين ، ولم يجدوا فارقاً بين مَنْ يعتدى على أرض الإسلام ، ومَنْ يعتدى على شريعة الإسلام . ولهذا خاضوا معركة تحرير الأرض ، كما خاضوا معركة تحكيم الشرع ، وسالت دماؤهم على أيدى الكفار اليهود والإنجليز ، كما سالت دماؤهم على أيدى الفجار ممن يتسمون بأسماء المسلمين ، وقدّموا الشهداء على أرض فلسطين والقناة فى ساحات القتال ، وشهداء مثلهم على أرض ليمان طرة والقلعة والسجون الحربية وغيرها فى ساحات التعذيب .

وكم حاولت قوى عديدة ، بارزة ومستترة ، فى الداخل والخارج ، أن تشترى الإخوان بالمال أو المناصب ، وبذلك يحتوون الحركة ويسيطرون عليها ، ولكن هذه القوى المالكة القادرة لم تجد عند الإخوان ، ولا عند مرشد الإخوان أذناً صاغية ، إنما وجدت الرفض الصارم ، والجواب الحاسم : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (١) .

وكم لجأت هذه القُوَى إلى أسلوب الوعيد بعد أن أخفق أسلوب الوعد ، ولوّحت بالتهديد بعد أن خاب الإغراء ، ولم يكن أسلوب الوعيد والتهديد بأنجح من أسلوب الوعد والإغراء . فكلا السهمين ارتدَّ إلى نحر صاحبه .. ولم تجد تلك القُوَى - التى تُرجَى وتُخشَى - إلا الإصرار على الدعوة ، والثبات عليها ، وإن توعدوا بالنار والدمار ، أو وعدوا بوضع الشمس فى اليمين والقمر فى اليسار .

---

(١) النمل : ٣٦

وهذا الإباء الأشم ، والموقف الصلب ، من قضية الإسلام ، وقضايا المسلمين ، ورفض كل محاولة للمساومة عليها أو التفريط فيها ، طالما عرَّض الحركة لتدبير المكايد لها ، وحياكة المؤامرات لضربها ، بل العمل على اقتلاعها من الجذور ، لو استطاعوا .

وهذا هو السر وراء المحن القاسية المتلاحقة ، والضربات الهمجية المتتابعة ، التى جعلت الجماعة لا تفيق من محنة إلا لتدخل فى أخرى .

وبرغم هذا لم تلن قناة الإخوان للوعد والوعيد قبل المحن ، ولا لانت قناتهم أثناء المحن ، ولا لانت كذلك بعد المحن ، لقد صبروا صبر الرجال ، وثبتوا ثبات الأبطال ، وإن شئت قلت : ثبات المؤمنين ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ومَنْ ضعف منهم يوماً - تحت أثقال الضغط والإرهاب - فقال كلمة من طرف لسانه ، أو كتب كلمة من طرف قلمه ، يدارى بها الطواغيت ، أو يرجو بها الخلاص من جبروت الطغاة ، مترخصاً متأولاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيَمان ﴾ (١) واثقاً من نفسه بأنه لم يشرح بالكفر صدراً ، ولم يخط فى مدح الظلم سطراً ، ولم يتخل عن الإسلام هدفاً .. مَنْ ضعف منهم يوماً ففعل ذلك ، سرعان ما ندم واستغفر ، ورجع إلى نفسه باكياً متألماً ، وإلى جماعته معتذراً متندماً ، وإلى ربه قبل ذلك تائباً مستغفراً .

* * *

● الجانب الاجتماعى :

ولقد رَبَى الإخوان على أن العمل لخير المجتمع جزء من رسالة المسلم فى الحياة ، فقد أشار القرآن إلى أن هذه الرسالة ذات شُعَب ثلاث : شُعبة تجسد العلاقة بالله فى العبادة ، وشُعبة تجسد العلاقة بالمجتمع فى فعل الخير ، وشُعبة تجسد العلاقة بالأعداء فى الجهاد .

---

(١) النحل : ١٠٦

وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُواْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١) .

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا المعنى ، وتبيِّن أن على كل مسلم فى كل يوم ضريبة أو زكاة اجتماعية يؤديها من ماله أو جاهه أو بدنه أو فكره أو لسانه .

روى البخارى عن أبى موسى أن النبى ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة » قيل : أرأيتَ إن لم يجد ؟ قال : « يعتمل بيديه ، فينفع نفسه ويتصدق » قال : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قيل له : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف - أو الخير » قال : أرأيتَ إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة » (٢) .

ومن هنا كان كل « أخ مسلم » عضواً نافعاً فى جماعته ، يفعل الخير ، ويدعو إليه ، ويكره الشر ، وينهى عنه ، يساعد الفقير ، ويأخذ بيد الضعيف ، ويُعلِّم الجاهل ، ويُنبِّه الغافل ، ويُخوِّف العاصى ، ويُذكِّر الناسى ، ويعود المريض ، ويشيع الميت ، ويعزى أهله ، ويكرم اليتيم ، ويحض على طعام المسكين ، ويشارك فى كل عمل ينهض بالمجتمع ، إن لم يكن هو السبَّاق له والداعى إليه .

وكانت شُعَب الإخوان كلها دوراً للإصلاح الاجتماعى ، ومراكزاً لخدمة الشعب بكل الوسائل المتاحة من تعليم ، إلى تدريب ، إلى علاج ، إلى رعاية اجتماعية ، إلى إرشاد دينى وصحى .

وكانت « أقسام البر والخدمة الاجتماعية » فى شُعَب الإخوان تنشئ المستوصفات الطبية للعلاج بأجور رمزية أو بغير أجر للمحتاجين ، وتجمع الزكوات والصدقات لتوزيعها على المستحقين ، وتفتح الفصول لمحو الأمية ، وتنشئ المدارس لتحفيظ القرآن ، وتعليم الكبار ، وتبنى المساجد الجديدة ،

---

(١) الحج : ٧٧ - ٧٨

(٢) رواه البخارى ومسلم .

أو تصلح المساجد القديمة ، لتقوم بدورها فى العبادة والهداية ، وتؤلف اللجان لإصلاح ذات البَين ، وتسهم فى حل المشكلات التى تواجه الجماعة ، وتذليل العقبات التى تعترض طريق رقيها وصلاحها .

وفلسفة الإخوان فى هذا واضحة مستمَدة من طبيعة الإسلام نفسه ، وتصوره للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة . ولكن بعض الناس - حزب التحرير - أنكروا على الإخوان اشتغالهم بهذا الجانب الاجتماعى ، بحجة أن هذا يشغل عن نشر الدعوة من ناحية ، كما أنه ترقيع جزئى لا يجدى ، إلا أنه يخدر المجتمع عن المطالبة والسعى لإقامة الدولة الإسلامية .

وغفل هؤلاء عن حقائق هامة :

١ - أنَّ فعل الخير جزء لا يتجزأ من مهمة المسلم التى أمره الله بها، كما بيَّناه بأدلته من القرآن والسُنَّة ، فهو مأمور بفعل الخير والدعوة إليه ، كما هو مأمور بالصلاة والعبادة .

٢ - أنَّ المسلم عضو حى فى جسم مجتمعه ، لا بد أن يحس بآلامه ، فلا بد أن يعمل على إزالتها ، أو على الأقل تخفيفها ، ولا يسعه أن يقف متفرجاً أمام جائع أو مريض ، وهو يقدر على إعانته أو إسعافه .

٣ - أنَّ عمل الخير نفسه لون من ألوان نشر الدعوة ، فالدعوة كما تُنشر باللسان والقلم ، تُنشر بالإحسان والعمل ، وهذا ما تحرص عليه الإرساليات التبشيرية وأمثالها .

٤ - أنَّ فى الجماعات طاقات تقدر على خدمة المجتمع ، ولا تقدر على العمل الفكرى أو التربوى ، فمن الخير ألا تُترك فارغة .

* * *

● الجانب السياسى :

ومن الجوانب الهامة التى عنيت بها التربية الإخوانية : الجانب السياسى . ونعنى بهذا الجانب ما يتصل بشئون الحكم ، ونظام الدولة ، والعلاقة بين

الحكومة والشعب . والعلاقة بين الدولة وغيرها من الدول إسلامية وغير إسلامية ، والعلاقة بالمستعمر الغاصب .. وغير ذلك من القضايا العديدة المتنوعة .

وقد كان هذا الجانب قبل دعوة حسن البنا وقيام مدرسته بعيداً عن اهتمام الجماعات الإسلامية - وبتعبير أصح : الجماعات الدينية - وخارج نطاق نشاطها وتفكيرها . فقد أصبح مفهوم السياسة مقابلاً لمفهوم الدين ، كما يقابل الأسود الأبيض فلا يُتصور اجتماعهما فى شخص أو فى جماعة ، والناس رجلان : إما رجل دين ، وإما رجل سياسة ، والجماعات نوعان : إما جماعة دينية ، وإما جماعة سياسية .

وحرام على رجل الدين أن يشتغل بالسياسة ، كما يحرم على رجل السياسة أن يشتغل بالدين ، ومثل ذلك تدخل الجماعة الدينية فى الشئون السياسية ، أو السياسية في شئون الدين . وقد يُتجاوز ويُتسامح فى تدخل رجل السياسة أو جماعة السياسة فى الدين ، أما الذنب الذى لا يُغتفر ولا يُتسامح فيه عند الناس يومئذ فهو أن يتدخل رجل الدين أو الجماعة الدينية فى القضايا السياسية .

وعلى هذا الأساس قامت فى مصر - كما فى غيرها - جماعات دينية الطابع كالطُرق الصوفية والجمعيات المختلفة التى تنص فى صلب لوائحها وأنظمتها الأساسية : أنها لا صلة لها بالسياسة .

وتقابلها تجمعات أخرى لا شأن لها بالدين ، وهى التى أُطلق عليها اسم « الأحزاب » مثل الحزب الوطنى أو حزب الأمة أو حزب الوفد ، وما انشق عنه ، وحزب الدستور وغيرها . فهذه الأحزاب تشترك كلها فى طابعها « العلمانى » . ففكرها النظرى وسلوكها التطبيقى قائمان على أساس عزل الدين عن الدولة ، وفصل الدولة عن الدين .

كما تؤمن كلها بالوطنية الإقليمية الضيقة . التى قامت تحيى نزعات جاهلية قديمة ، كالفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى سوريا ، والآشورية فى العراق .. ومن لم يؤمن منها بالنزعة الوطنية آمن بالنزعة القومية مثل : القومية

الطورانية فى تركيا ، والقومية العربية فى بلاد العرب ، والقومية السورية فى سوريا الكبرى .

كان على « حسن البنا » أن يخوض معركة حامية الوطيس ، لمطاردة المفاهيم الخاطئة عن العلاقة بين الدين والسياسة ، تلك المفاهيم التى غرسها الجهل والهوى ، وتعهدها الاستعمار الثقافى بالسعى والرعاية حتى تغلغلت جذورها وامتدت فروعها .

وكان لا بد من حرب الفكرة الخاطئة بالفكرة الصحيحة وهى « شمول الإسلام » لكل جوانب الحياة .. ومنها السياسة ، كما دل على ذلك القرآن والحديث ، وهُدى الرسول وسيرة الصحابة ، وعمل الأمة كلها طوال ثلاثة عشر قرناً أو تزيد .

وللإمام الشهيد فى ذلك كلمات تكاد تكون محفوظة لدى جمهور الإخوان ، من ذلك قوله فى إحدى رسائله :

« إذا قيل لكم : إلامَ تدعون ؟ فقولوا : نحن ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه ، والحرية فريضة من فرائضه .

« فإن قيل لكم : هذه سياسة ، فقولوا : هذا هو الإسلام ، ونحن لا نعرف هذه الأقسام » !

وتقوم التربية السياسية لدى مدرسة « حسن البنا » على جملة دعائم ، أهمها :

١ - تقوية الوعى والشعور بوجوب تحرير الأرض الإسلامية من كل سلطان أجنبى ، وإجلاء المستعمر الغاصب عن ديار الإسلام بكل وسيلة مشروعة ، ابتداءً بالوطن الصغير ، وادى النيل شماله وجنوبه - مصر والسودان - فالوطن العربى الكبير من المحيط إلى الخليج ، وأشهد أن هذا التحديد للوطن العربى كان أول ما سمعته من الإمام البنا رضى الله عنه .. فالوطن الإسلامى الأكبر من المحيط إلى المحيط ، من الهادى إلى الأطلسى ، من أندونيسيا وما جاورها شرقاً إلى مراكش غرباً .

وبهذا الفهم اتسع أفق « الأخ المسلم » ليسع الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فضلاً عن الأمة العربية . فلم يحبس نفسه فى قمقم الوطنية الضيقة أو القومية المتعصبة ، شأن الأحزاب السياسية السائدة فى تلك الأيام .

ومن هنا اهتم الإخوان فى مصر بقضية بلدهم الذى يعيشون فيه ومطالبه الوطنية التى تمثلت فى جلاء الإنجليز عن مصره وسودانه ، ووحدة وادى النيل ، وعقد الإخوان لذلك مؤتمرات كبرى فى كافة محافظات مصر ومدنها الكبيرة لتوعية أبناء الشعب بمطالبه ، وأعلن هنا أنى لم أفهم هذه المطالب حق الفهم إلا من لسان حسن البنا حين وقف فى مؤتمر طنطا يشرحها ويردها إلى أصولها .

وكان الإمام الشهيد فى هذه المؤتمرات يوضح الأهداف ، ويوضح معها الوسائل الواجب اتخاذها ، من المطالبة لدى الهيئات الدولية ، وكسب الرأى العام العالمى ، إلى المقاطعة الاقتصادية لسلع المستعمر ، ومنتجاته . إلى التعبئة وإعلان الجهاد المقدس ، فإما أن نعيش سعداء أحراراً ، وإما أن نموت شهداء أبراراً .

ولا زلتُ أذكر المرشد الشهيد وهو يتحدث فى هذا المؤتمر عن سلاح المقاطعة وأثره الفعّال ، وقُدرة الشعب المصرى على استخدام هذا السلاح ، وأنه شعب قنوع صبور ، قادر فى ساعة الجد أن يقنع بالقليل ، ويرضى باليسير ، ذاكراً فى ذلك من الأمثال الشعبية ما يؤيد هذه الوجهة ، ومستشهداً ببعض الوقائع التاريخية القريبة لدى بعض الشعوب الإسلامية .

ومما قاله يومئذ : « سنُخرِج للشعب فتاوى ابن حزم المخبوءة فى بطون الكتب من أن العدو المشرك نجس كله ، لا يجوز مسه ولا التعامل معه : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٢٨

وزاد حسن البنا على ذلك فطالَب الإخوان - خاصة - والمسلمين عامة فى وادى النيل بأن يقنتوا فى الركعة الأخيرة من كل صلاة ، وبخاصة الصلوات الجهرية ، وبعد القيام من الركوع « قنوت النوازل » بأن يدعوا الله عندما تشتد الأزمات عليهم أن يُفرِّج الله عنهم الكُربة ، ويكشف الغُمة ، اقتداءً بالنبى ﷺ حينما كان يدعو فى صلواته على المشركين المعتدين ، وللمسلمين المستضعفين . وليس هناك أزمة أشد من فقد الحرية والاستقلال وتحكم الكافر فى رقبة المسلم ، مع أن الله تعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

وقد وضع الإمام البنا صيغة للدعاء فى هذا القنوت يدعو بها وبمثلها المصلون ، لا زلتُ أحفظها من كثرة ما دعوتُ بها فى الصلاة على رغم مرور ثلث قرن من الزمان : « اللّهم رب العالَمين ، وأمان الخائفين ، ومذل المتكبرين ، وقاصم الجبارين ، تقبل دعاءنا ، وأجب نداءنا . اللّهم إنك تعلم أن هؤلاء الغاصبين من الإنجليز قد احتلوا أرضنا ، وغصبوا حقنا .. وطغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد .. اللّهم فرُدَّ عنا كيدهم ، وفُلَّ حدهم ، وأذل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، وخذهم ومَنْ وادهم أو عاونهم أو ناصرهم أخذ عزيز مقتدر .. اللّهم ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين » .

وبهذا لم تعد القضية الوطنية شيئاً فى حاشية شعور الأخ المسلم ، أو على هامش حياته . بل إنها حاضرة فى وعيه وحسه ، تصاحبه فى بيته ومسجده ، وخلوته وجلوته ، وتحيا فى أعماق كيانه واضحة حية ملتهبة .

ولهذا لم يكن الإنجليز يخافون شيئاً كما يخافون من هؤلاء « المتعصبين » لدينهم ، ويخشون أن يتحول الشعور الوطنى إلى شعور إسلامى متأجج لا يعبأ بشئ فى سبيل غايته ، ولا يبالى : أوَقَعَ على الموت أم وَقَعَ الموت عليه .

---

(١) المنافقون : ٨ (٢) النساء : ١٤١

ولا ريب أن تكون هذه المواقف العقائدية للحركة الإسلامية ومؤسسها وراء مؤامرات الكيد لها عند الحكومات الوطنية العلمانية ، كما أثبت ذلك اجتماع سفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا فى قاعدة « فايد » العسكرية بمنطقة « القناة » سنة ١٩٤٨ الذى طالبَ حكومة النقراشى باشا رئيس الحزب السعدى المصرى بحل جماعة الإخوان المسلمين . وكان ما كان .

كانت هذه بعض ملامح من تربية الإخوان فيما يتعلق بوطنهم الصغير : وادى النيل . ولم يشغلهم ذلك عن الاهتمام بقضايا وطنهم العربى الكبير ، ووطنهم الإسلامى الأكبر . وأولى هذه القضايا بغير شك كانت قضية أرض النبوات ، ومهد الرسالات ، أرض أُولى القبلتين ، وثالث المسجدين الشريفين : قضية فلسطين ، التى عنىَ بها الإخوان فى وقت مبكر ، ونوَّهوا بشأنها ونبَّهوا على خطرها ، وأصدروا من أجلها بيانات ونشرات ، وأعداداً خاصة من مجلتهم ، وعقدوا الندوات والمؤتمرات فى سبيلها ، وطالما انتهزوا فرصة ذكرى « وعد بلفور » فى الثانى من نوفمبر من كل عام ، لإخراج المسيرات ، وتسيير المظاهرات ، توعية للرأى العام ، وإيقاظاً للشعور بأهمية القضية . ومَنْ قرأ مجلات الإخوان القديمة « فى الثلاثينات » رأى من ذلك العَجب العُجاب .

كانت الرؤية واضحة لدى كل أخ مسلم بقضية فلسطين ، وكان إحساسه بها حياً دافقاً ، فى الوقت الذى كان جمهور الناس فى مصر لا يشعرون بأهمية هذه القضية ، ولا بخطر اليهودية الطامعة المتوثبة بجوارهم ، حتى قال رئيس حكومة مصرية يوماً وقد سُئِل عن رأيه فى ذلك : أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين !

وكانت خُطب الإمام الشهيد ومحاضراته عن فلسطين ، ومقالاته النارية فى مجلات الإخوان وصحيفتهم اليومية مثل : صناعة الموت .. وفن الموت .. وهبى يا رياح الجنة .. وغيرها ، تهيئ الأنفس ليوم آت لا ريب فيه . فلما جاء هذا اليوم ، ونادى المنادى : أن حى على الجهاد ، آتت هذه التربية والتوعية أُكلها ،

وتجلت آثارها فى إقبال الألوف من شباب الإخوان - بل من شيوخهم أحياناً - على مكاتب التطوع للجهاد فى سبيل الأرض المقدسة ، وكانت معارك الجهاد والبطولة والاستشهاد فى سبيل اللّه ، مما يعرفه اليهود أنفسهم أكثر من غيرهم .

ولم ينس الإخوان قضايا سوريا ولبنان فى المشرق العربى .. ولا قضايا الشمال الإفريقى أو المغرب العربى : تونس والجزائر ومراكش ، وقد كان المركز العام للإخوان بمثابة « دار العائلة » لزعماء هذه البلاد وقادة التحرير فيها .

وقُلْ مثل ذلك بالنسبة لقضايا التحرير فى البلاد الإسلامية كلها مثل أندونيسيا وغيرها ، فقد كان الإخوان يعتبرونها قضاياهم ، ويحيون فيها فكراً وشعوراً ، وإن بعدت عن أبدانهم الدار ، وشَطَّ المزار .

٢ - الدعامة الثانية : إيقاظ الوعى والشعور بفرضية إقامة « الحكم الإسلامى » وضرورته ، فهو فريضة شرعية ، وضرورة قومية وإنسانية .

أما إنه فريضة ، فقد أوجب اللّه على الحكام والمحكومين أن يرجعوا إلى حكمه وحكم رسوله فى كل شئونهم ، ولم يجعل لها فى ذلك خياراً بموجب عقد الإيمان فى صدورهم .

فأما الحكّام فحسبنا قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الكافِرُونَ ﴾ (١) .. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

وأما المحكومون فحسبنا قول اللّه تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٤٤
(٢) المائدة : ٤٥
(٣) المائدة : ٤٧
(٤) النساء : ٦٥

وحسب الجميع قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وأما إنه ضرورة قومية وإنسانية ، فلأن أمتنا خاصة ، والبَشرية عامة ، جربت الفلسفات البَشرية ، والأنظمة الوضعية ، فلم تجن من ورائها السعادة التى ترجوها ، والحياة الطيبة التى تنشدها . بل فقدت كل معنى جميل تسعى إليه وتحرص عليه . فقد الفرد سكينة نفسه ، وفقدت الأسرة استقرارها وترابطها ، وفقد المجتمع تماسكه وتوازنه ، وفقد العالم كله أمنه وسلامه .

ولا بد للبَشرية من طب جديد يعالج أدواءها ، دون أن يجلب عليها أمراضاً جديدة .

إذا استشفيتَ من داءٍ بداءٍ فأقتل ما أعلَّكَ ما شفاكَ !

وليس هذا الطب الجديد إلا الإسلام الذى جمع الله فيه بين مصالح الدنيا والآخرة ، بين مطالب الجسم وتطلعات الروح .. بين حظ النفس وحق الله تعالى ، بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، ولا غرو فهو عدل الله بعباده ، وشرعة الخالق لإصلاح خلقه ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٣) .

وقد أكد حسن البنا على هذا المعنى الأساسى فى كل رسائله وكافة محاضراته : المطالبة بحكم القرآن - وإقامة دولة الإسلام ، محارباً بذلك الفكرة « العلمانية » الخبيثة الدخيلة التى تنادى بفصل الدين عن الدولة فى الحكم والتشريع والتعليم والإعلام وغيرها ، فلئن جاز هذا فى عُرف النصرانية التى يقول إنجيليها : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ! لا يجوز ذلك أبداً فى عُرف الإسلام الذى لايقبل قسمة الحياة ولا قسمة الإنسان بحال من الأحوال ، بل يعتبر قيصراً وما لقيصر ، والحياة كلها ، والإنسان كله لله الواحد القهار .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) النور : ٥١ (٣) الملك : ١٤

يقول الإمام الشهيد فى رسالته « إلى الشباب » : « نريد (الحكومة المسلمة) التى تقود الشعب إلى المسجد ، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد ، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ : أبى بكر وعمر من قبل . ونحن لهذا لا نعترف بأى نظام حكومى لا يرتكز على أساس الإسلام ، ولا يُستمد منه ، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا بهذه الأشكال التقليدية التى أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها .. وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامى بكل مظاهره ، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام » .

وفى « رسالة المؤتمر الخامس » يعرض لهذه النقطة بمزيد من الإيضاح والبيان فيجيب عن تساؤلات الناس عن « موقف الإخوان من الحكم » فيقول :

« ويتساءل فريق آخر من الناس : هل فى منهاج الإخوان المسلمين أن يُكَوِّنوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم ؟ وما وسيلتهم إلى ذلك ؟ ولا أدع هؤلاء المتسائلين أيضاً فى حيرة ، ولا نبخل عليهم بالجواب ، فالإخوان المسلمون يسيرون فى جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدى الإسلام الحنيف كما فهموه ، وكما أبانوا عن فهمهم هذا فى أول هذه الكلمة - وهذا الإسلام الذى يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه ، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد ، وقديماً قال الخليفة الثالث رضى الله عنه : « إنَّ الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » ، وقد جعل النبى ﷺ الحكم عروة من عرى الإسلام - والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول ، لا من الفقهيات والفروع ، فالإسلام حكم وتنفيذ ، كما هو تشريع وتعليم ، كما هو قانون وقضاء ، لا ينفك واحد منها عن الآخر - والمصلح الإسلامى إن رضى لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ويسرد الفروع والأصول وترك أهل التنفيذ يُشرِّعون للأمة ما لم يأذن به الله ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره ، فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة فى واد ونفخة فى رماد كما يقولون .

« قد يكون مفهوماً أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذاً لأحكامه ، وإيصالاً لآياته وأحاديث نبيه ﷺ ، وأما والحال كما نرى : التشريع الإسلامى فى واد والتشريع الفعلى والتنفيذى فى واد آخر ، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يُكَفِّرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدى الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف - هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا ، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف ، وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم ، فإن وجدوا من الأمة مَنْ يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامى قرآنى فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم ، وسيعملون لاستخلاصه من أيدى كل حكومة لا تنفذ أوامر الله .

« وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم ونفوس الأمة على هذا الحال ، فلا بد من فترة تُنشر فيها مبادئ الإخوان وتسود ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ..

« وكلمة لا بد أن نقولها فى هذا الموقف هى أن الإخوان المسلمين لم يروا فى حكومة من الحكومات التى عاصروها - لا الحكومة القائمة ولا الحكومة السابقة ولا غيرهما من الحكومات الحزبية - مَنْ ينهض بهذا العبء ، أو مَنْ يبدى الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية ، فلتعلم الأمة ذلك ولتطالب حكّامها بحقوقها الإسلامية وليعمل الإخوان المسلمون .

« وكلمة ثانية : إنه ليس أعمق فى الخطأ من ظن بعض الناس أن الإخوان المسلمين كانوا فى أى عهد من عهود دعوتهم مطيَّة لحكومة من الحكومات ، أو منفذين لغاية غير غايتهم ، أو عاملين على منهاج غير منهاجهم ، فليعلم ذلك مَنْ لم يكن يعلمه من الإخوان ومن غير الإخوان » .

ولا ينسى حسن البنا - رحمه الله - فى رسالته هذه الجامعة إلى المؤتمر الخامس للإخوان أن يبيِّن بصراحة موقف الحركة من استخدام القوة العسكرية ، أو اللجوء إلى الثورة الشعبية العامة ، فيقول :

« ويتساءل كثير من الناس : هل فى عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الإخوان المسلمون فى إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى فى مصر ؟ ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين فى حيرة ، بل إنى أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا فى وضوح وفى جلاء ، فليسمع مَنْ يشاء :

« أما القوة فشعار الإسلام فى كل نظمه وتشريعاته ، فالقرآن الكريم ينادى فى وضوح وجلاء : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) ، والنبى ﷺ يقول : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » ، بل إن القوة شعار الإسلام حتى فى الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة ، واسمع ما كان يدعو به النبى ﷺ فى خاصة نفسه ويُعلِّمه أصحابه ويناجى ربه : « اللَّهم إنى أعوذُ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجُبْن والبخل ، وأعوذ بك من غَلبة الدَيْن وقهر الرجال » ألا ترى فى هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف - ضعف الإرادة بالهم والحزن ، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل ، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل ، وضعف العزة والكرامة بالدَّيْن والقهر - فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً فى كل شئ شعاره القوة فى كل شئ ؟ فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء ، ولا بد أن يعملوا فى قوة .

« ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر فلا يغوصون إلى أعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يُقصد منها

---

(١) الأنفال : ٦٠.

وما يُراد بها ، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان ، ويلى ذلك قوة الوحدة والإرتباط ، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح - ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعانى جميعاً ، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهى مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك - هذه نظرة .

« ونظرة أخرى : هل أوصى الإسلام - والقوة شعاره - باستخدام القوة فى كل الظروف والأحوال ؟ أم حدد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجّه القوة توجيهاً محدوداً ؟

« ونظرة ثالثة : هل تكون القوة أول علاج أم أنَّ آخر الدواء الكى ؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف ؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون ؟

« هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه - والثورة أعنف مظاهر القوة ، فنظر الإخوان المسلمين إليها أدق وأعمق ، وبخاصة فى وطن كمصر جرَّب حظه فى الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون . وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين : إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عُدَّة الإيمان والوحدة ، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء ، سينذرون أولاً ، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون فى كرامة وعزّة ، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح - أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ، ولا يعتمدون عليها ، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها ، وإن كانوا يصارحون كل حكومة فى مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أُولو الأمر فى إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل فسيؤدى ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم ، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال ، وإهمال مرافق الإصلاح ، وليست

هذه المشاكل التى تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرها بمضى الأيام إلا نذيراً من هذه النُذر ، فليسرع المنقذون بالأعمال » .

٣ - الدعامة الثالثة : إيقاظ الوعى والشعور بوجوب الوحدة الإسلامية وضرورتها . فهى أيضاً فريضة دينية ، وضرورة دنيوية .

أما فريضتها ، فلأن الله جعل المسلمين « أمة واحدة » يسعى بذمتهم أدناهم وهم يَدٌ على مَنْ سواهم : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (١) .

كما أوجب الإسلام أن يكون للمسلمين - حيثما كانوا - ومهما اتسعت أقطارهم - « إمام » واحد ، هو رأس دولتهم ، ورمز وحدتهم ، حتى إنَّ « مَنْ مات وليس فى عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية » (٢) .

وأما ضرورة هذه الوحدة ، فلما هو معلوم من أنَّ الاتحاد قوة ، والتفرق ضعف ، فاللَّبنة الواحدة بمفردها ضعيفة ، ولكن اللَّبنة إلى اللَّبنة تُكوِّن بنياناً متيناً يشد بعضه بعضاً ، يصعب هدمه أو النَيْل منه .

ولهذا رأينا الإمام الشهيد ينادى بالوحدة الإسلامية ، ويدعو إلى التفكير بجد لإعادة الخلافة ، وينتهز كل فرصة لتأكيد هذه المعانى وتثبيتها فى عقول الإخوان وقلوبهم ، حتى يشب عليها الصغير ويهرم عليها الكبير .

وهو لا يرى تنافياً بين الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، والدعوة إلى الوحدة الوطنية ، أو الوحدة العربية ، إذا فُهِمَت كل منها الفهم السليم ، ووُضِعَت فى موضعها الصحيح .

استمع إليه فى « رسالة المؤتمر الخامس » وهو يبيِّن موقف الإسلام - وبالتالى موقف الإخوان - من هذه الألوان أو المراتب من الوحدة « الوطنية والعربية والإسلامية » فيقول :

---

(١) المؤمنون : ٥٢

(٢) رواه مسلم .

« إنَّ الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها أن يعمل كل إنسان لخير بلده وأن يتفانى فى خدمته ، وأن يقدِّم أكبر ما يستطيع من الخير للأمة التى يعيش فيها ، وأن يقدِّم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحماً وجواراً ، حتى إنه لم يجز أن تُنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر إلا لضرورة ، إيثاراً للأقربين بالمعروف ، فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التى هو عليها وأن يخدم الوطن الذى نشأ فيه ، ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية وأعظمهم نفعاً لمواطنيه ، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين ، وكان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصاً على خير وطنهم ، وتفانياً فى خدمة قومهم ، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة كل عزة ومجد وكل تقدم ورقى ، وكل فَلاح ونجاح وقد انتهت إليها رياسة الأمم الإسلامية بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم .

« ثم إنَّ هذا الإسلام الحنيف نشأ عربياً ووصل إلى الأمم عن طريق العرب . وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين ، وقد جاء فى الأثر : « إذا ذُلَّ العرب ذُلَّ الإسلام » وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى وإنتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومَنْ إليهم ، فالعرب هم عُصبة الإسلام وحُرَّاسه - وأحب هنا أن ننبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرَّفها النبى ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : « ألا إنَّ العربية اللسان . ألا إنَّ العربية اللسان » ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه - ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية .

« بقى علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية - والحق أنَّ الإسلام كما هو عقيدة وعبادة ، هو وطن وجنسية ، وأنه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس ، فالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) ، والنبى ﷺ

(١) الحجرات : ١٠ .

يقول : « المسلم أخو المسلم » ، « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على مَنْ سواهم » .

« فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية ، ويعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامى وطناً واحداً مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده ، وكذلك الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام ، ينادون بأنَّ وطنهم هو كل شِبر أرض فيه مسلم يقول : لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله » .

ويرد الإمام البنا على اليائسين والموئسين من توحيد كلمة المسلمين ، الذين يقولون : إن هذا غير ممكن والعمل له عبث لا طائل تحته ، ومجهود لا فائدة منه ، وخير للذين يعملون لهذه الجامعة أن يعملوا لأقوامهم ويخدموا أوطانهم الخاصة بجهودهم - بأنَّ هذه لغة الضعف والاستكانة .

« فقد كانت هذه الأمم مفرَّقة من قبل متخالفة فى كل شئ : فى الدين واللغة ، والمشاعر والآمال ، فوحَّدها الإسلام وجمع قلوبها على كلمة سواء ، وما زال الإسلام كما هو بحدوده وبرسومه فإذا وُجِدَ من أبنائه مَنْ ينهض بعبء الدعوة إليه وتجديده فى نفوس المسلمين فإنه يجمع هذه الأمم جميعاً من جديد كما جمعها من قديم ، والإعادة أهون من الابتداء ، والتجربة أصدق دليل على الإمكان .

« وضح إذن أنَّ الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ولا يرون بأساً بأن يعمل كل إنسان لوطنه وأن يُقدِّمه فى الوطن على سواه ، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام - ولى أن أقول بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير

للعالَم كله ، فهم ينادون بالوحدة العالَمية لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

« وأنا فى غنَى بعد هذا البيان عن أن أقول إنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار ، وبأن كُلاً منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ، فإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المنادة بالقومية الخاصة سلاحاً يميت الشعور بما عداها فالإخوان المسلمون ليسوا معهم ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس .

« ولعل من تمام هذا البحث أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من الخلافة وما يتصل بها ، وبيان ذلك أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية ، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام ، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير فى أمرها والاهتمام بشأنها ، والخليفة مناط كثير من الأحكام فى دين اللّه . ولهذا قدَّم الصحابة رضوان اللّه عليهم النظر فى شأنها على النظر فى تجهيز النبى ﷺ ودفنه حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها .

« والأحاديث التى وردت فى وجوب نصب الإمام وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها لا تدع مجالاً للشك فى أنَّ من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير فى أمر خلافتهم منذ حُوِّرت عن مناهجها ثم أُلغيت بتاتاً إلى الآن - والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها فى رأس مناهجهم ، وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التى لا بد منها ، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد أن تسبقها خطوات » .

هذه معالم التربية السياسية للإخوان ، إنها تربية جديدة تخالف التربية التى

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

كانت تقوم عليها الأحزاب والمنظمات السياسية ، إن صَحَّ أن كان لديها تربية من نوع ما .

كانت تربية الإخوان تربية إسلامية خالصة ، لأنها تستمد مقوِّماتها ومفاهيمها من الإسلام وحده ، وكانت تربية إيجابية واعية ، تقوم على الفهم لا التهريج ، وعلى العمل لا الكلام ، وعلى البناء لا الهدم ، وعلى الحق لا الهوى ، وعلى التضحية وإنكار الذات ، لا على المغانم وإتباع الشهوات .

* * *

الإيجابية والبناء

كما تميَّزت التربية الإسلامية لدى الإخوان بالتأكيد والتركيز على الجانب الإيمانى أو الربانى ، وبالتكامل والشمول فى جوانب التربية ، تميَّزت كذلك بخصيصة هامة ، هى الاتجاه إلى الإيجابية والبناء .

كان « حسن البنا » مؤسس الحركة له من اسمه نصيب أى نصيب ، فكان حقاً رجل بناء لا رجل هدم ، ورجل عمل لا رجل كلام ، ورجل واقع لا رجل خيال .

لهذا اتجه بطاقته وطاقات الإخوان من حوله إلى الإيجابية والإنتاج ، بدل الاشتغال بلغو القول ، ولهو الحديث ، وعبث الصبيان ، والبحث عن عيوب الآخرين ، وطوبَى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

إن الإسلام يريد من المسلم أن يكون همه الفعل قبل القول ، فلا يقول إلا ليعمل ، ولا يعمل إلا ليتقن ، حتى لا يتوجه إليه تقريع الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وعمل المسلم ليس مهملاً ولا مضيَّعاً ، إنه مقدور ومعتبر عند الله وعند الناس : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

يكره الإسلام للمسلم أن يشتغل بما لا يعنيه ، وأن يصرف وقته فى التافه من الأمور ، أو الخوض فى الباطل من القول ، أو حضور الزور من الفعل ، أو الرد

(١) الصف : ٢ – ٣ (٢) التوبة : ١٠٥

على إساءات الآخرين ، ولهذا وصف اللّه المؤمنين بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

ووصف عباد الرحمن بقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ (٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً ﴾ (٤) .

وفى الحديث : « من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وقد اعتبر علماء السُنَّة هذا الحديث أحد أحاديث أربعة يقوم عليها بناء الإسلام .

ويكره الإسلام للمسلم أن يصرف أصغريه - قلبه ولسانه - إلى السب واللعن للناس أو للأشياء ، فليس المسلم سبَّاباً ولا لعَّاناً . ولهذا جاءت جملة أحاديث وفيرة عن النبى ﷺ كلها تقول : « لا تسبوا » منها : « لا تسبوا الموتى فإنهم أفضوا إلى ما قدَّموا » ، « لا تسبوا الدهر ، فإنَّ اللّه هو الدهر » ، « لا تسبوا الريح فإنها مأمورة » ، « لا تسبوا الحمى فإنها كفَّارة الخطايا » ، « لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة » .

وأعجب من ذلك ، النهى عن سب الشيطان ذاته ، مع ثبوت عداوته للإنسان وطرده من رحمة اللّه مذءوماً مدحوراً . روى النسائى والطبرانى والحاكم عن بعض الصحابة قال : « كنت رديف النبى ﷺ فعثر بعيرنا ، فقلتُ : تعس الشيطان ! فقال لى النبى ﷺ : « لا تقل تعس الشيطان ، فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول : بقوتى ! - أى : صرعته بقوتى - ولكن قل : بسم اللّه ، فإنه يصغر حتى يصير مثل الذباب » !

إنَّ سب الشيطان عمل سلبى لا يؤذى الشيطان نفسه ، بل يسره ويُرضى غروره ، وإنما يؤذى الشيطان ويغيظه أن يتجه الإنسان إلى عمل إيجابى كأن يذكر اللّه تعالى ويقول : « بسم اللّه » فهذا يجعله يتضاءل ويصغر حتى يغدو كالذباب .

---

(١) المؤمنون : ٣
(٢) القصص : ٥٥
(٣) الفرقان : ٦٣
(٤) الفرقان : ٧٢

فى وضوء هذه المعانى الإسلامية الخالصة ، وعلى مثل هذه الروح الإيجابية البنّاءة ، كانت تربية حسن البنا للإخوان ، وكانت توجيهاته إليهم فى شتّى المناسبات ، وبمختلف الوسائل .

لقد حرص على تجنيبهم السلبية والتواكل ، والاستسلام والتشاؤم ، وروح المراء والجدل العقيم ، وفتح لهم مجالات العمل ، ليصرفوا فيها طاقاتهم ، ويبذلوا جهودهم ، وهى مجالات كثيرة ومتنوعة ، وجديرة بأن تستغرق الأوقات ، وتستنفد القدرات ، وأن تتعلق بها همم المؤمنين ، وتشرئب إليها أعناق المجاهدين .

استمع إليه فى رسالة « التعاليم » وهو يشرح حقيقة العمل ومراتبه يوضح الركن الثالث من أركان « البيعة » بعد الفهم والإخلاص . يقول : « وأريد بالعمل .. ثمرة العلم والإخلاص : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ومراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق :

١ - إصلاح نفسه حتى يكون : قوى الجسم ، متين الخُلُق ، مثقف الفكر ، قادراً على الكسب ، سليم العقيدة ، صحيح العبادة ، مجاهداً لنفسه ، حريصاً على وقته ، منظّماً فى شئونه ، نافعاً لغيره ، وذلك واجب كل أخ على حدة .

٢ - وتكوين بيت مسلم : بأن يحمل أهله على احترام فكرته والمحافظة على آداب الإسلام فى كل مظاهر الحياة المنزلية ، وحسن اختيار الزوجة ، وتوقيفها على حقها وواجبها ، وحسن تربية الأولاد والخدم ، وتنشئتهم على مبادئ الإسلام . وذلك واجب كل أخ على حدة كذلك .

---

(١) التوبة : ١٠٥ .

٣ - وإرشاد المجتمع : بنشر دعوة الخير فيه ، ومحاربة الرذائل والمنكرات ، وتشجيع الفضائل ، والأمر بالمعروف ، والمبادرة إلى فعل الخير ، وكسب الرأى العام إلى جانب الفكرة الإسلامية ، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائماً . وذلك واجب كل أخ على حدته . وواجب الجماعة كهيئة عاملة .

٤ - وتحرير الوطن : بتخليصه من كل سلطان أجنبى - غير إسلامى - سياسى أو اقتصادى أو روحى .

٥ - وإصلاح الحكومة : حتى تكون إسلامية بحق ، وبذلك تؤدى مهمتها كخادم للأمة ، وأجير عندها ، وعامل على مصلحتها . والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام ، غير متجاهرين بعصيان ، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه .

٦ - وإعادة الكيان الدولى للأمة الإسلامية : بتحرير أوطانها ، وإحياء مجدها ، وتقريب ثقافاتها ، وجمع كلمتها ، حتى يؤدى ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة ، والوحدة المنشودة .

٧ - وأستاذية العالَم : بنشر دعوة الإسلام فى ربوعه ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويأبى الله إلا أن يُتِمَ نوره .

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة ، تجب على الجماعة متحدة ، وعلى كل أخ باعتباره عضواً فى الجماعة . وما أثقلها تبعات ، وما أعظمها مهمات ، يراها الناس خيالاً ، ويراها الأخ المسلم حقيقة ، ولن نيأس أبداً ، ولنا فى الله أعظم الأمل ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وهو فى توجيهه وتثقيفه للإخوان يُعلِّمهم أن يعنوا بالكليات قبل الجزئيات ، وبالأصول قبل الفروع ، وأن يهتموا بالواقع وقضاياه ، وبالمسائل العلمية ، ولا يستغرقهم البحث فيما لا ثمرة له ، أو لا طائل تحته .

ولهذا يقول فى الأصول العشرين « الأصل التاسع » :

« كل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نُهِينا عنه شرعاً ، ومن ذلك : كثرة التعريفات للأحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب - رضوان الله عليهم - وما شَجَرَ بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صُحبته ، وجزاء نيِّته ، وفى التأول مندوحة » .

ويبيِّن أن الاختلاف بين الفقهاء فى فروع الأحكام الشرعية أمر تفرضه طبيعة الدين ، وطبيعة اللغة ، وطبيعة البَشر ، وأنه لا خطر منه ، وإنما الخطر فى التعصب والتفرق والعداوة . يقول فى « الأصل الثامن » :

« والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين ، ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ، ولكل مجتهد أجره . ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف ، فى ظل الحب فى الله ، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب » .

وبهذا كله وَفَّرَ على الإخوان إضاعة الأوقات والجهود فى التعصب للآراء ، أو فى بحث ما لا جدوى فيه ، وصرفها إلى ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض .

وكان لحسن البنا عشر وصايا مركَّزة تكاد تكون محفوظة لدى الإخوان ، وكلها حث على الإيجابية والعمل والبناء ، وتحذير من الفراغ والسلبية والهدم .

يقول فى هذه الوصايا :

١ - قم إلى الصلاة متى سمعتَ النداء مهما كانت الظروف .

٢ - اتل القرآن ، أو طالع ، أو استمع ، أو اذكر الله ، ولا تصرف جزءاً من وقتك فى غير فائدة .

٣ - اجتهد أن تتكلم العربية الفصحى ، فإن ذلك من شعائر الإسلام .

٤ - لا تُكثر الجدل فى أى شأن من الشئون أياً كان ، فإن المراء لا يأتى بخير .

٥ - لا تُكثر الضحك فإنَّ القلب الموصول بالله ساكن وقور .

٦ - لا تمزح ، فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد .

٧ - لا ترفع صوتك أكثر مما يحتاج إليه السامع فإنه رعونة وإيذاء .

٨ - تجنب غَيبة الأشخاص ، وتجريح الهيئات ، ولا تتكلم إلا بخير .

٩ - تعرَّف على مَنْ تلقاه من إخوانك ، وإن لم يطلب منك ذلك ، فإن أساس دعوتنا الحب والتعارف .

١٠ - الواجبات أكثر من الأوقات ، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته ، وإن كان لك مهمة فأوجز فى قضائها .

ومن معانى الإيجابية فى تربية الأخ المسلم : ألا يكون همه التلذذ بالعبادة الشخصية والانحصار فى الأنس بالذكر ، والمتعة بالفكر ، من غير التفات إلى أمراض المجتمع ومشكلات الناس ، وما فشا بينهم من انحراف فى العقيدة ، وابتداع فى العبادة ، وانحلال فى الخُلُق ، وانهيار فى التماسك ، فيقف من هذا كله موقف المتفرج المستسلم ، أو المتحسر المتندم ، أو القانط اليائس ، أو النائح المولول ، دون أن يقوم بخطوة إيجابية لإصلاح الفساد ، وتقويم العوَج ، ودعوة الأشرار إلى الخير ، والمبتدعين إلى الاتباع ، والمنحرفين إلى الاستقامة ، والمتكاسلين إلى العمل ، والفاترين إلى الحماس .

إنَّ الواجب فى تربية الأخ المسلم أن يجعل الدعوة أكبر همه ، ومحور حياته ، وغاية سعيه ، وأن يعتبر هداية فرد واحد إلى الإسلام خيراً له مما طلعت عليه الشمس وغربت ، وأن الدعوة إلى الله هو طريق الرسل ، وخلفائهم ، وأنها أكرم وظيفة فى الحياة . ولهذا كان شعار الإخوان دائماً : أصلح نفسك وادع غيرك ، ولا انفصال بينهما . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

---

(١) فصلت : ٣٣

ولم تكن الدعوة التى نشئ عليها الإخوان تقف عند صورة واحدة ، أو أسلوب معيَّن ، بل على كل أخ أن يدعو مَنْ حوله ومَنْ يستطيع بالوسيلة التى يقدر عليها ، ويراها مؤثرة فى مدعويه ، من خطبة أو محاضرة أو حديث أو مناقشة عادية ، أو تصرف حسن ، أو موقف إيمانى صامت .

وكان على كل أخ أن يكون حيث ينزل للإخوان داراً أو رجالاً ، وهم أهم من الدار حتى شاع هذا القول بينهم : « علامة الرجل الصالح أن يترك فى كل مكان يحل فيه أثراً صالحاً » .

وكان كل أخ مسلم بحكم تكوينه داعية ، مؤثراً فى محيطه بقوله وعمله ، حتى كان بعض العمال والفلاحين والتجار من الإخوان إذا تحدَّثوا عن الدعوة حسبهم السامع من خريجى الأزهر أو الجامعات ، لأنهم جمعوا بين الفِطرة الموهوبة والدُربة المكسوبة ، فضلاً عن الروحانية المطلوبة ، والحماسة المشبوبة .

ومما أعان الإخوان على الإيجابية والإنتاج : تربيتهم على الإحساس بقيمة الوقت ، والحرص على الانتفاع به ، وأن كل إنسان لن تزول قدماه يوم القيامة حتى يُسئل عن عمره فِيمَ أفناه ؟ وعن شبابه فِيمَ أبلاه ؟

ولهذا كان من الوصايا العشر التى ذكرناها من قبل وصيتان تتعلقان بالوقت .. إحداهما تقول : « اتل القرآن ، أو طالع ، أو استمع ، أو اذكر اللّه ، ولا تصرف جزءاً من وقتك فى غير فائدة » وهذه هى ثانية الوصايا .

والأخرى ، وهى الوصية العاشرة والخاتمة تقول : « الواجبات أكثر من الأوقات ، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته ، وإن كان لك مهمة فأوجز فى قضائها » .

ومن أبلغ ما كتبه الشهيد البنا : حديث من أحاديث الجمعة – التى كان يكتبها لجريدة « الإخوان المسلمون » اليومية صباح كل جمعة - بعنوان :« الوقت هو الحياة » يُخَطِّئْ فيه المثل الشائع : « الوقت من ذهب » قائلاً : « إنَّ هذا صحيح فى نظر الماديين الذين يقيسون كل شئ بمقياس المادة ، ولكن الواقع أن الوقت أغلى من الذهب ومن كل جوهر نفيس . فإن الذهب إذا فات يمكن أن

يُعوَّض ، والوقت إذا فات لا يُعوَّض . الوقت فى الحقيقة هو الحياة ، وهل حياة الإنسان إلا الوقت الذى يقضيه من الميلاد إلى الوفاة » ؟

ومما سجَّله فى مذكراته - رحمه الله - أن أحد شيوخه قال له ولبعض إخوانه :

« إنى أتوسم أنَّ الله سيجمع عليكم القلوب ، ويضم إليكم كثيراً من الناس ، فاعلموا أنَّ الله سيسألكم عن أوقات هؤلاء الذين سيجتمعون عليكم : أفدتموهم فيها ، فيكون لهم الثواب ولكم مثلهم ، أم انصرفت هباءً ، فيؤاخذون وتؤاخذون » !!

وقد سمعته يردد هذه الوصية فى حفل كبير أقيم فى مدينة طنطا ، للتوعية بالمطالب الوطنية التى تحددت حينذاك فى جلاء الإنجليز ووحدة وادى النيل .

ولقد استطاع الإخوان حين اعتُقلوا فى عهد الملكية بعد حل جماعتهم فى ديسمبر ١٩٤٨ ، وبعد الاجتماع المشهور فى منطقة « فايد » العسكرية لسفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا ، أن يُحوِّلوا معتقلهم الأكبر فى الطور إلى جامع للعبادة ، ومعهد للدراسة ، ونادٍ للرياضة ، ومعسكر للتدريب ، وبرلمان للتشاور ، حتى كنا نقول على سبيل الفكاهة : الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩ . السفر والمصاريف والإقامة والتكاليف على حساب الحكومة المصرية !!

ولقد سجَّلتُ ذلك فى قصيدة لى ألقيتها فى حفل إخوانى أقيم بميدان السيدة زينب بعد خروجنا من المعتقل عام ١٩٥٠ ، ومنها :

قالوا : إلى السجن . قلنا : شُعَبَة فُتِحت ... ليجمعونا بها فى الله إخوانا

قالوا : إلى الطور . قلنا : الطور مؤتمر ... فيه نقرر ما يخشاه أعدانا

فهو المصلى نربى فيه أنفسنا ... وهو المصيف نقوِّى فيه أبدانا

معسكـــر صاغنا جنـــداً لمعـــركة	ومعهـــد زادنا بالحـــق عِـــرْفانا

مَـــنْ حرّمـــوا الجمع منا فوق أربعة	ضموا الألوف بغاب الطور أُسدانا

رامـــوه منفـــى وتضييقاً فكان لنا	بنعمـــة الحـــب والإيمـــان بستانا

هذا هو الطور شاءوا أن نـذوب به	وشـــاء ربـــكَ أن نـــزداد إيمانا

ولقد استفاد جلادو الثورة من هذه التجربة ، فجهدوا جهدهم ألا يستـ
الإخوان من فترة بقائهم فى المعتقلات أو السجون لدعوتهم أو لأنفسهم ، فـ
الاعتقال سنة ١٩٥٤ فى السجن الحربى حيث الزنازين المغلقة التى لا تُـ
إلا دقائق معدودة فى اليوم والليلة لدخول دورة المياه ركضاً وبأقصى سرعـ
حيث السياط تلهب الظهور ، ولم يُسمح بأى تجمع ولو كان للصلاة ، إلا ما
من تجمع طوابير « التكدير » ، كما لم يُسمح باصطحاب أى كتاب ، ولو
هو كتاب اللّٰه الكريم .

ومع هذا تحوّلت الزنازين إلى حلقات للذِكر والتسبيح ، والتدارس الهادئ
كلما سنحت فرصة تهدأ فيها سياط التعذيب .

ولقد حدّثنى بعض الإخوة الذين نُقِلوا إلى معسكر « المحاريق » فى الواحـ
زيادة فى التنكيل والإعنات لهم : كيف حوّلوه فى مدة وجيزة من أرض قفـ
قاحلة إلى جنة ضاحكة ، زروع وثمار وفاكهة ودواجن ، عَمَّ نفعها الضبـ
والجنود وكل مَنْ يعيش حولهم ، ولما زارهم بعض رجال الثورة ومعهم الجـ
الشهير حمزة البسيونى فوجئوا بما شاهدوا ، ، وآذاهم ذلك كل الإيذاء
وغاظهم أشد الغيظ ، أن يجدوا عند هؤلاء المعذّبين صدوراً تنشرح للعمل
وعزائم تتجه إلى الإنتاج ، فأمروا بهدم هذا كله وتخريبه ، وبناء سجن مُحْـ
يحول بين هؤلاء وبين العمل للحياة !

هكذا أراد حسن البنا لدعوته وحركته : أن تكون دعوة عمل وبناء وإنتاج .

لم يرد لها أن تكون مجرد حركة أكاديمية أو فلسفية تعيش فى أبراج عاجية تتخيل جمهورية مثالية كجمهورية أفلاطون ، أو مدينة فاضلة كمدينة الفارابى ، وإن كان للفكر والعلم فيها مكان أى مكان .

ولم يرد كذلك لجماعته أن تكون جماعة جدلية ، تستهلك أفرادها المناقشات البيزنطية ، التى تسود بعض الجماعات الدينية ، والتى تغلب على الأمم فى عصور الضعف والانحلال ، وكثيراً ما كان يحذِّر من الجدل العقيم ، والمراء الموغر للصدور دون جدوى ، ويكرر الحديث الشريف : « ما ضَلَّ قوم بعد هُدىً كانوا عليه ، ألا أوتوا الجدل » .

* * *

الاعتدال والتوازن

ومن خصائص التربية الإسلامية ، كما دعا إليها حسن البنا وعلّمها لرجاله : الاعتدال ، وإن شئت قسمه : التوازن أو الوَسطية .

وإذا كان المسلمون وَسَطاً بين الأمم والمِلل ، وكان أهل السُنَّة وَسَطاً بين الفِرق ، فالإخوان وَسَط بين الجماعات الإسلامية .

فهم يوازنون بين العقل والعاطفة ، وبين المادة والروح ، وبين النظر والعمل ، وبين الفرد والمجتمع ، وبين الشورى والطاعة ، وبين الحقوق والواجبات ، وبين القديم والجديد .

وقد انتفعت الحركة بالتراث الإسلامى كله ، فأخذت من علماء الشريعة العناية بالنصوص والأحكام ، ومن علماء الكلام الاهتمام بالأدلة العقلية ورد الشُبهات ، ومن علماء التصوف العناية بتربية القلوب وتزكية النفوس ، مع الحرص البالغ على التحرر مما علق بهذا التراث من شوائب ومحدَثات ، والرجوع إلى النبع الصافى من كتاب الله وسُنَّة رسوله .

لم يقف حسن البنا من التراث الفقهى بمذاهبه ومدارسه موقف الرفض المطلق ، كما صنع بعض الناس ، ولا موقف القبول المطلق ، كما فعل آخرون ، ولم يوجب التقليد للمذاهب ، ولم يُحرِّمه كذلك على كل الناس ، لكنه أجازه لبعض الناس بقيود وشروط هى غاية فى الاعتدال فقال فى « الأصل السابع » من الأصول العشرين :

« لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به - مع هذا الاتباع - أن يجتهد ما استطاع فى تعرُّف

أدلة إمامه ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل ، متى صَحَّ عنده صدق مَنْ أرشده وكفايته ، وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر » . (أى القدرة على الترجيح والاجتهاد ولو جزئياً) .

وليس معنى هذا أنَّ كل ما قاله إمام من أئمة الدين حق وصواب ، فإنما هو مجتهد فى الوصول إلى الحق ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ، وليس علينا – بل ليس لنا – إذا تبين خطؤه أن نتبعه . ولهذا قال فى « الأصل السادس » بصريح العبارة :

« وكل أحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم صلى اللّه عليه وسلم ، وكل ما جاء عن السَلَف – رضوان اللّه عليهم – موافقاً للكتاب والسُنَّة قبلناه ، وإلا فكتاب اللّه وسُنَّة رسوله أولى بالاتباع . ولكنا لا نعرض للأشخاص – فيما اختُلِفَ فيه – بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدَّموا » .

وهذا هو الاعتدال ، كما أنه هو الإنصاف الذى لا يستطيع أحد أن يمارى فيه ، وهو موقف شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه المركز الجليل « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

ولم يقف رائد الحركة الإسلامية عند هذا الحد ، بل أعلن أنَّ كل الآراء والعلوم التى تلونت بلون عصرها وبيئتها لا تلزمنا نحن دعاة الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى ، ولنا الحرية أن نجتهد لأنفسنا كما اجتهدوا ، وإن كنا لا نهمل دراستها والانتفاع بها ، فهى ثروة عظيمة بلا شك .

يقول فى « رسالة المؤتمر الخامس » :

« يعتقد الإخوان المسلمون أنَّ أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب اللّه وسُنَّة رسوله ، اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبداً ، وأن كثيراً من الآراء والعلوم التى اتصلت بالإسلام ، وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها ، والشعوب التى عاصرتها ، ولهذا يجب أن تستقى النُظم الإسلامية التى تُحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافى : معين السهولة الأولى ، وأن

نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السَلَف الصالح ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية ، حتى لا نُقيِّد أنفسنا بغير ما قيَّدنا الله به ، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه ، والإسلام دين البَشرية جميعاً » .

هذه هى روح التجديد الحق ، تجديد الاعتدال لا تجديد الشطح والتطرف .

هذا موقفه من قضية الفقه وقضية الإجتهاد والتقليد ، والمذهبية واللامذهبية ، وَسَطاً معتدلاً ، لا غلو ولا تقصير .

وكذلك كان موقفه فى قضية « العقيدة » وما جرى حولها من خلاف فى بعض المسائل ، وفهم بعض النصوص ، واختلاف الفرق والمذاهب فى ذلك .

لقد كان يعتنق عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، ويتبنى طريق السَلَف فى فهم الآيات والأحاديث المتعلقة بصفات الله تعالى . وكان حريصاً كل الحرص على تحقيق التوحيد ، ومحاربة الشرك بكل ألوانه وأنواعه : أكبره وأصغره ، وجليه وخفيه ، منكراً كل مظاهر الوثنية ، وكل المبتدعات الشركية التى دخلت على حياة كثير من المسلمين ، فأفسدت عليهم عقائدهم وعباداتهم وأفكارهم وعواطفهم وسلوكهم ، مثل الزيارات الشركية للأضرحة ، والاستغاثات الشركية بالأولياء ، وإتيان الكهنة والعرَّافين وتصديقهم ، إلى غير ذلك من صور الأباطيل والانحرافات .

ولكنه يمهد لهذه الحملة على الشركيات والبدع ، بما يهيئ الأنفس والعقول لتقبلها ، ويصوغ إنكاره فى عبارات لبقة حكيمة ، تجمع بين مرارة الحق وحلاوة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

اصغ إليه يقول فى « الأصول العشرين » :

« محبة الصالحين واحترامهم ، والثناء عليهم بما عُرِفَ من طيب أعمالهم ، قُربة إلى الله تبارك وتعالى . والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

---

(١) يونس : ٦٣

« والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية ، مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فى حياتهم ، أو بعد مماتهم ، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم .

« وزيارة القبور أياً كانت سُنَّة مشروعة ، بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ، ونداءهم لذلك ، وطلب قضاء الحاجات منهم ، عن قُرب أو بُعد ، والنذر لهم ، وتشييد القبور ، وسترها ، وإضاءتها ، والتمسح بها ، والحَلف بغير الله ، وما يلحق بذلك من المبتدعات - كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة » .

وهكذا نراه يهتم ببيان الحق قبل فضح الباطل ، ويقدِّم التعريف بالمعروف قبل إنكار المنكر . وبذلك يلين النفوس التى شبَّت على الباطل وشابت عليه ، ويدخل إليها دخول الداعية الموفق ، والمربى الحكيم ، دون استثارة المعاندين ، أو تأليب المخالفين .

وكذلك كان الشأن فى موضوع « الصفات الإلهية » وما ثار فيها من جدل بين العلماء من مؤولين وغير مؤولين ، فهو يغض الطرف عن هذا الخلاف ، راجعاً إلى معين السهولة الأولى ، بعيداً عن تكلف التأويل ، وإثم التعطيل ، يقول فى «الأصل العاشر» :

« معرفة الله تبارك وتعالى ، وتوحيده ، وتنزيهه ، أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة ، وما يليق بذلك من المتشابه .. نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء . ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ٧

وبمثل هذه الروح المنصفة المعتدلة وقف من التصوف : فلم يقبله كله بعجره وبجره ، وسُنِّيه وبِدعيه ، ولم يرفضه كله بما فيه من صواب وخطأ ، وحُسن وسوء ، بل كان مبدؤه هنا : خذ ما صفا ودع ما كدر . فليس كل ما فى التصوف باطلاً ، وليس كله حقاً ، وليس كل المتصوفة مبتدعة ، وليس كلهم على سُنَّة ، فلا بد من الانتقاء والاختيار ، والاستفادة من تراث القوم ، وفيه من الحرارة والتأثير ما ليس فى غيرهم ، ولكلامهم صَولة ليس لكلام مَنْ سواهم ، وقد سجَّل رأيه فى التصوف بصراحة فى كتابه « مذكرات الدعوة والداعية » .

ورغم أنه بدأ فى أول الأمر على صلة بإحدى الطُرق فهو لم يُسلم زمامه إليها ، بل أخذ منها وترك ، وقال عن نفسه وعن صديقه السكرى : كنا مريدين أحراراً فى تفكيرنا ، وإن كنا مخلصين كل الإخلاص - فى تقديرنا - للعبادة والذِكر وأدب السلوك .

مع أن الطريقة نفسها كانت أبعد من غيرها عن البِدع ، وكان يعجبه من شيخها شدته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى للملوك والكبراء ، واتباع للسُنَن ومحاربة للبدع ، ولم يكن يصغى كثيراً لما يسمعه من كرامات الشيخ وخوارقه الحسيَّة ، فعمله فى هداية الخلق ، ونشر الحق ، أعظم من الكرامات فى نظره .

ولم تلن قناة حسن البنا للبدع والمحدَثات التى راجت بين كثيرين من المتصوفة عن الزيارات البِدعية للأضرحة ، والتبرك بالقبور ، ودعاء الأموات ، وتعليق التمائم ، وغيرها ، فأعلن الحرب على هذه الأشياء فى « الأصول العشرين » ، واعتربها كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لها سداً للذريعة .

ومع هذا قال فى إنكار البِدع ومقاومتها :

« وكل بِدعة فى دين الله لا أصل لها - استحسنها الناس بأهوائهم - سواء بالزيادة فيه أو النقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها » .

وهذا هو الفقه حقاً ، فإنّ السكوت على المنكر واجب إذا أدّت مقاومته إلى منكر أكبر منه . ولهذا أصل فى القرآن والسُنّة كما هو معلوم فى موضعه .

ولهذا كان يصلى التراويح فى رمضان ثمانى ركعات حسبما صَحَّ من الحديث عن عائشة .. ولكن لم ينكر على مَنْ صلّى عشرين ، فلكل من الفريقين وجهة ودليل ، وسيظل الخلاف فى الفروع قائماً لأسباب ذكرها هو فى أكثر من رسالة من رسائله .

وقد حكوا عنه أنه زار بلداً اختلف أهله بين صلاة الثمانية وصلاة العشرين ، وقام بينهما النزاع على أشده ، حتى كادوا يقتتلون ، واجتمع الفريقان ليسألوه . لم يجبهم بل سألهم هو عن صلاة التراويح : أسُنّة هى أم فريضة ؟ فقالوا جميعاً : بل سُنّة . فقال : والأخوة بين المسلمين واتحاد كلمتهم : سُنّة أم فريضة ؟ قالوا جميعاً : بل فريضة . فقال فى قوة ووضوح : كيف تهدمون فريضة من أجل سُنّة ؟ خير لكم أن تدعوا صلاة التراويح نهائياً فى المسجد ، وتحتفظوا بأخوتكم سليمة ، بدل أن تُصلُّوا ويضرب بعضكم وجوه بعض .

كانت مزية حسن البنا الجمع بين عقل السلفى المتبع ، وقلب الصفى المتذوق . وكذلك أراد لأصحابه .

فهو فى العقيدة سَلَفى خالص ، يؤمن بالتوحيد ، ويحارب الشرك أكبره وأصغره ، وجليه وخفيه ، ويتبنى منهج السَلَف فى آيات الصفات وأحاديثها كما بيّن ذلك فى رسالته عن « العقائد » وفى أصوله العشرين .

وهو فى العبادة كذلك متبع لا مبتدع ، فكل بِدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

ولكنه فى تزكية الأنفس ، وتهذيب الأخلاق ، وعلاج أمراض القلوب ، ومقاومة الهوى ، وسد مداخل الشيطان إلى قلب الإنسان متصوف سُنّى ، ذوّاقة نقّادة ، يأخذ لنفسه ولأتباعه من كتب القوم ومناهجهم ما يُرَقّى الروح ، ويُطَهّر القلب ، ويوثق الصلة بالله ، والحب بين الإخوان .

وموقفه هنا يشبه إلى حد كبير موقف شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلاّمة ابن القيم ، فقد استفادوا من التصوف - علماً وعملاً وتعليماً - وكتبا فى ذلك رسائل وكتباً عديدة ، منها لابن تيمية مجلدان فى فتاويه : أحدهما تحت عنوان: « التصوف » والثانى تحت عنوان : « السلوك » .

أما ابن القيم فله مؤلفات عدة منها : « الداء والدواء » ، « طريق الهجرتين » « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » .

وأعظمها كتابه الجليل « مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين إلى مقامات : إياك نعبد وإياك نستعين » .

و « المنازل » رسالة موجزة مكثفة لشيخ الإسلام إسماعيل الهروى الحنبلى ، ولكنه طالما خالفه فيما ذهب إليه فيها ، قائلاً : « شيخ الإسلام حبيب إلينا ، ولكن الحق أحب إلينا منه » .

وكان ابن تيمية وتلميذه من كبار الربانيين ، أرباب القلوب الحية ، والنفوس الزاكية ، والأرواح الموصولة بالملأ الأعلى ، حتى حكى ابن القيم عن شيخه أنه قال : إنه لتمر علىَّ أوقات أقول فيها : لو كان أهل الجنة على مثل ما أنا فيه لكانوا فى حال طيبة !

ولما حبسوه فى القلعة ، لم يُوهن ذلك من عزمه ، ولم يُضعف من أُنسه بمولاه ، وقال فى ذلك : إنما المحبوس مَنْ حُبِسَ قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه .

وقال : ماذا يصنع بى أعدائى ؟ إن سجنونى فسجنى خلوة ، وإن نفونى فنفيى سياحة ، وإن قتلونى فقتلى شهادة !

ويبدو لى من تتبع حياة حسن البنا ومراحل تفكيره ودعوته : أنه بدأ أقرب إلى الصوفية ، وانتهى أقرب إلى السَلَفية ، ولكنه لم يُقم يوماً بينهما حرباً ، بل طعَّمَ صرامة السَلَفية ، بروحانية التصوف ، وضبط مواجيد التصوف بالتزام السَلَفية ، وكان ذلك هو الطابع الغالب على أتباعه إلا ما ندر .

* * *

● الاعتدال فى النظرة إلى المجتمع وتحديد هويته :

ومن دلائل الاعتدال والتوازن فى تربية الإخوان ، كما فهمها حسن البنا ونفذّها : نظرته إلى المجتمع وعلاقة الإخوان به ، فهى نظرة وَسَطية معتدلة ، تنظر إلى المجتمع من أفق رحب ، ومن زوايا متعددة ، وبمنظار سليم لم يشبه الغبش والقتام .

فليس هو مجتمعاً خالص الإسلام ، كامل الإيمان ، كما يتوهم السطحيون من الناس الذين يشيعون أنَّ أمة محمد بخير ، وأنه لا ينقصنا إلا العلم و « التكنولوچيا » وبذلك تنحل كل العُقَد ، وتنفض كل المشكلات .

فلا شك أن المجتمع فى شتَّى بلاد الإسلام يعانى أمراضاً خطيرة ، عقدية وفكرية وخُلُقية واجتماعية ، وأن الفساد قد تغلغل فى شتَّى نواحيه : فساد فى العقول ، اضطربت به العقائد والمفاهيم ، وفساد فى الضمائر ، اضطربت به الأخلاق والأعمال ، وفساد فى التشريع ، اضطربت به النظم والقوانين ، وفساد فى الأسرة ، اضطربت به العلاقات بين الأزواج والوالدين والأولاد ، وفساد فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلها ، جعل بلاد المسلمين فى مؤخرة العالَم بعد أن كانت فى الطليعة من قافلة البَشر ، ومأخذ الزمام منها .

ولا شك أن هذه كله نتيجة ضمنية للانحراف عن الإسلام الصحيح ، فهماً وإيماناً وتطبيقاً . ولولا هذا ما كان المجتمع فى حاجة إلى دعوة جديدة ، تصحح فهمه للإسلام ، وتجدد إيمانه به ، وتدفعه – بالتوجيه الراشد ، والتربية السليمة – على حُسن تطبيقه .

ورغم هذا الانحراف والفساد الشائع فى المجتمع ، لم يذهب حسن البنا يوماً إلى أنه مجتمعٌ جاهلى كافر .

إنه قد يصف المجتمع بالانحراف أو الفسوق أو العصيان أو الابتداع .. أما الكفر والرِدَّة فلا .

فلا زالت شعائر الإسلام تُقام فى هذا المجتمع ، ولا زالت بعض أحكم الإسلام تُرعى وتُنفذ ، ولا زال جمهور الناس مؤمنين بربهم ونبيهم وقرآنهم ، ولا زالت العاطفة الدينية تحتل مكانها فى الصدور ، ولا زالت كلمة الإسلام هى المحرِّك الأول للشعوب .

كان حسن البنا يربى أتباعه على الاحتراز من خطيئة « التكفير » للمسلمين ، والوقوع فيما وقع فيه الخوارج من قبل ، حيث كفَّروا مَنْ عداهم من المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، حتى كان من سماتهم البارزة : أنهم « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » .

وكان ينكر على الجماعات الدينية التى تتراشق فيما بينها بسهام التكفير ، والاتهام بالشرك والردّة .

والأصل الثانى من أصوله العشرين يقول فى صراحة :

« لا نُكفِّر مسلماً أقَرَّ بالشهادتين ، وعمل بمقتضاهما ، وأدّى الفرائض - برأى أو معصية ، إلا إن أقَرَّ بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذّب صريح القرآن ، أو فسَّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر » .

إن تكفير الأفراد والمجتمعات - الذى تبنّاه بعض الدعاة إلى الإسلام فيما بعد - خطأ دينى ، وخطأ علمى ، وخطأ حركى ، أرجو أن أُبيِّنه فى كتاب مستقل إن شاء الله .

وفى تحديد علاقة الإخوان بالمجتمع ، قامت تربية الإخوان على هذه النظرة المتزنة .

فلم تقم على الذوبان فى المجتمع أو مسايرته فى خيره وشره ، وحلاله وحرامه باسم « التطور » أو « التحديث » ونحو ذلك من العناوين التى يتكئ عليها دعاة « التغريب » وأدعياء « التجديد » فى ديار المسلمين .

كما لم تقم أيضاً على رفض المجتمع ، والاستعلاء عليه ، ومعاملته معاملة العدو للعدو ، ومخاطبته من بعيد ، ومن عل ، بأنف شامخ ، وخد مصعَّر ، وشعور بالعزلة والاستكبار .

إنما قامت التربية على أساس الاهتمام بالمجتمع ، والتفاعل مع أحداثه ، والإحساس بآلامه وآماله ، بحيث يفرح الأخ المسلم لأفراحه ، ويأسى لأساه ، ويعمل لإسعاده وإنقاذه وإصلاحه ، فهو منه كالعضو من الجسد ، أو كاللَّبنة من البنيان .

وهكذا صوَّر لنا النبى ﷺ مجتمع المؤمنين : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

« مَثَلُ المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد » .

« مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

والأخ المسلم كذلك محب لوطنه ، عامل على تخليصه من كل غاصب ، وتحريره من كل قيد يعوقه عن النهوض بواجبه عزيزاً مستقلاً .

يقول الشهيد البنا فى رسالته « دعوتنا فى طور جديد » :

« إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة فى الأرض التى نبتنا فيها ، ونشأنا عليها . ومصر بلد مؤمن تلقى الإسلام تلقياً كريماً ، وزادَ عنه ، ورَدَّ عنه العدوان فى كثير من أدوار التاريخ ، وأخلص فى اعتناقه ، وطوى عليه أعطف المشاعر ، وأنبل العواطف . وهو لا يصلح إلا بالإسلام ، ولا يداوَى إلا بعقاقيره ، ولا يطب إلا بعلاجه . وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية ، والقيام عليها ، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر ؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع ؟ وكيف يقال : إن الإيمان بالمصرية لا يتفق مع مايجب أن يدعو إليه رجل ينادى بالإسلام ويهتف بالإسلام !

« إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له مجاهدون فى سبيل خيره ، وسنظل كذلك ما حيينا ، معتقدين أنَّ هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة ، وأنها جزء من الوطن العربى العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام .

« وليس يضيرنا فى هذا كله أن نعنى بتاريخ مصر القديم وبما ترك قدماء المصريين من آثار الحضارة والعمران ، وبما سبقوا إليه الناس من المعارف والعلوم والفنون .

« فنحن نرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد وفيه عزة وفيه علم ومعرفة . ونحارب هذه النظرية بكل قوانا كمنهاج علمى يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه بعد أن هداها اللّه بتعاليم الإسلام ، وشرح له صدرها ، وأنارَ به بصيرتها ، وزادها به شرفاً ومجداً فوق مجدها ، وخلّصها بذلك مما لاحق هذا التاريخ من أوضار الوثنية ، وأدران الشرك ، وعادات الجاهلية » .

وهذه الكلمات المضيئة المشرقة تبيِّن لنا وجهاً آخر من وجوه الاعتدال والتوازن فى دعوة حسن البنا وفى تربيته ، جديراً بأن نخصه بحديث ، وهو موقفه من الوطنية والقومية وما شاكلها .

● موقف الدعوة من الوطنية والقومية وغيرها :

ومن مظاهر الاعتدال الذى ربى عليه حسن البنا رجال دعوته : موقفه من الدعوات والأفكار الأخرى التى كانت مطروحة فى المنطقة حين ظهرت دعوته .

وذلك مثل موقفه من الوطنية أو القومية أو العروبة أو الشرقية أو العالَمية .

فهو لا يصدم أصحاب هذه الدعوات برفضها رفضاً مطلقاً ، كما لا يقبلها قبولاً مطلقاً ، ولكنه - عادة - يقسمها ويصنفها إلى ما هو مقبول لموافقته للفكرة الإسلامية ، وما هو مرفوض لمنافاته لها .

* وطنية الحنين :

فى رسالة « دعوتنا » يقول مناقشاً دعاة الوطنية : « إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والانعطاف نحوها ، فذلك أمر مركوز فى فِطَرِ النفوس من جهة ، مأمور به فى الإسلام من جهة أخرى . وإن بلالاً الذى ضحَّى بكل شئ فى سبيل عقيدته ودينه هو بلال الذى كان يهتف فى دار الهجرة بالحنين إلى مكة فى أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلة بواد وحــولى إذخـــر وجليل
وهـــل أردنْ يـــوماً مياه مجنة وهـل يبدونْ لى شامة وطفيل

ولقد سمع رسول الله ﷺ وصف مكة من « أصيل » فجرى دمعه حنيناً إليها وقال : « يا أصيل .. دع القلوب تقر » .

* وطنية الحرية والعزة :

وإن كانوا يريدون أنَّ من الواجب العمل بكل جهد فى تحرير البلد من الغاصبين ، وتوفير استقلاله له ، وغرس مبادئ العزة والحرية فى نفوس أبنائه ، فنحن معهم فى ذلك أيضاً ، وقد شدَّد الإسلام فى ذلك أبلغ التشديد فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

* وطنية المجتمع :

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القُطر الواحد ، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية فى مصالحهم . فذلك نوافقهم فيه أيضاً ، ويراه الإسلام فريضة لازمة فيقول نبيه ﷺ : « وكونوا عباد الله إخواناً »، ويقول القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ (٣) .

---

(١) المنافقون : ٨ (٢) النساء : ١٤١ (٣) آل عمران : ١١٨

* وطنية الفتح :

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد ، وسيادة الأرض ، فقد فرض ذلك الإسلام ، ووجَّه الفاتحين إلى أفضل استعمار ، وأبرك فتح . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

* وطنية الحزبية :

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتتراشق بالسباب ، وتترامى بالتهم ، ويكيد بعضها لبعض ، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء ، وشكلتها الغايات والأغراض ، وفسَّرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية ، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ، ويزيد وقود هذه النار اشتعالاً ، يُفرِّقهم فى الحق ، ويجمعهم على الباطل ، ويحرِّم عليهم اتصال بعضهم ببعض ، وتعاون بعضهم مع بعض ، ويحل لهم هذه الصلة به ، والالتفاف حوله ، فلا يقصدون إلا داره ، ولا يجتمعون إلا زواره ، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس .

فها أنت ذا قد رأيتَ أننا مع دعاة الوطنية ، بل مع غلاتهم فى كل معانيها الصالحة التى تعود بالخير على البلاد والعباد .

وقد رأيتَ مع هذا أنَّ تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام .

* حدود وطنيتنا :

أما وجه الخلاف بيننا وبينهم ، فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة ، وهم يعترونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية . فكل بقعة فيها مسلم يقول : «لا إلٰه إلاَّ اللّٰه محمد رسول اللّٰه »، وطن عندنا له حُرمته وقداسته وحبه والإخلاص له ، والجهاد فى سبيل خيره . وكل المسلمين فى هذه الأقطار الجغرافية أهلنا

---

(١) البقرة : ١٩٣

وإخواننا ، نهتم لهم ، ونشعر بشعورهم ، ونحس بإحساسهم ، ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك ، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البُقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض ، ويظهر ذلك الفارق العملى فيما إذا أرادت أمة من الأمم أن تُقَوِّى نفسها على حساب غيرها ، فنحن لا نرضى ذلك على حساب أى قطر إسلامى ، وإنما طلب القوة لنا جميعاً ، ودعاة الوطنية المجردة لا يرون بذلك بأساً . ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القُوَى ، ويضرب العدو بعضهم ببعض .

* غاية وطنيتنا :

هذه هى واحدة . والثانية أن الوطنيين جل ما يقصدون إليه تخليص بلادهم ، فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك ففى النواحى المادية كما تفعل أوروبا الآن ، أما نحن فنعتقد أن المسلم فى عنقه أمانة ، عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله فى سبيل أدائها .. تلك هى هداية البَشر بنور الإسلام ، ورفع عَلمه خفَّاقاً على كل ربوع الأرض ، لا يبغى بذلك مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً على أحد ولا استعباداً لشعب ، وإنما يبغى وجه الله وحده ، وإسعاد العالَم بدينه وإعلاء كلمته . وذلك ما حدا بالسَلَف الصالحين رضوان الله عليهم إلى هذه الفتوح القدسية التى أدهشت الدنيا ، وأربت على كل ما عرف التاريخ من سرعة وعدل ونبل وفضل » .

* * *

● أصناف الناس فى موقفهم من الدعوة :

ويبيِّن حسن البنا أصناف الناس فى موقفهم من الدعوة ، فيجعلهم أربعة :

١ - إما شخص مؤمن .. آمن بالدعوة ، وأعجب بمبادئها ، ورأى فيها خيراً اطمأنت إليه نفسه .. فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا ، والعمل معنا ، حتى يكثر عدد المجاهدين ، ويعلو بصوته صوت الداعين .. ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل ، ولا فائدة فى عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها والتضحية فى سبيلها .

٢ - وإما شخص متردد ، لم يستبن له وجه ، ولم يتعرف فى قولنا معنى الإخلاص والفائدة ، فهو متوقف متردد . لهذا يوصيه حسن البنا : « بأن يتصل بنا عن كثب ، ويقرأ عنا من بعيد أو من قريب ، ويطالع كتاباتنا ، ويزور أنديتنا ، ويتعرف إلى إخواننا ، فسيطمئن بعد ذلك لنا إن شاء الله » .

٣ - وإما شخص نفعى ، لا يريد أن يبذل معونته إلا إذا عرف ما يعود عليه من فائدة دنيوية ، وما يجر هذا البذل له من مغنم مادى . فهذا إن كشف الله الغشاوة عن قلبه ، وأزاح كابوس الطمع عن فؤاده ، فسيعلم أنَّ ما عند الله خير وأبقى ، وسينضم إلى كتيبة الله ليجود بما معه من عَرَض الدنيا ، فينال ثواب الله فى العقبى ، وإن كانت الأخرى فالله غنى عمن لا يرى لله الحق الأول فى نفسه وماله ودنياه وآخرته وموته وحياته .

٤ - وإما شخص متحامل ، ساء فينا ظنه ، وأحاطت بنا شكوكه وريبه ، فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم ، ولا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج المتشكك .

فهذا ندعو الله لنا وله الهداية والرشد . وسنظل نحبه ونرجو فيئه إلينا ، واقتناعه بدعوتنا ، وإنما شعارنا معه ما أرشدنا إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم : « اللّهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

بهذه الروح الطيبة السمحة ، وبهذا القلب الكبير ، وبهذا الأسلوب الكريم ، كان حسن البنا ينظر إلى الناس فى المجتمع من حوله ، ويحدد موقفهم من دعوته ، وموقفه - بالتالى - منهم ، وهو موقف أبرز ما يُعبِّر عنه كلمة « الاعتدال » .

* * *

الأخوة والجماعة

ومن المعانى الأساسية التى ربى عليها الإخوان المسلمون : الأخوة والمحبة فى الله ، ولا غرو فاسمهم نفسه يحمل هذا المعنى « الإخوان » . وقد جعل الإمام البنا « الأخوة » أحد أركان البيعة العشرة .. وفسّرها بقوله : أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة ، والعقيدة أوثق الروابط وأعلاها ، الأخوة أخت الإيمان ، والتفرق أخو الكفر ، وأقل القوة قوة الوحدة ، ولا وحدة بغير حب . أقل الحب سلامة الصدر ، وأعلاه مرتبة الإيثار : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . والأخ الصادق يرى إخوانه أولى به من نفسه ، لأنه إن لم يكن بهم فلن يكون بغيرهم ، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٢) .. وهكذا يجب أن يكون ..

وسمعته مرة يقول : « دعوتنا تقوم على أركان ثلاثة : الفهم الدقيق ، والإيمان العميق ، والحب الوثيق » .

وكان رحمه الله فى حديثه الأسبوعى بالمركز العام للجماعة ، المسمى « حديث الثلاثاء » يبدؤه بمقدمة ترغيبية ، لتقوية أواصر الحب بين أعضاء الحركة ، مؤيِّدة بالنصوص ووقائع السَلَف الصالح يسميها « عاطفة الثلاثاء » .

ولقد عرف القاصى والدانى مقدار الترابط المتين الذى يربط الإخوان بعضهم ببعض ، فهم صورة ماثلة لما أراده الحديث النبوى : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فهم فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم أشبه بأبناء الأسرة الواحدة ، بل بأعضاء الجسد الواحد .

---

(١) التغابن : ١٦ (٢) التوبة : ٧١

ولقد لاحظ أحد الصحافيين مدى الترابط الإخوانى فقال فى ذلك كلمة مشهورة : هؤلاء هم الجماعة الذين إذا عطس أحدهم فى الإسكندرية قال له مَنْ فى أسوان : يرحمك الله !

لقد أزالت التربية الإخوانية كل الحواجز ، وأسقطت كل الفوارق ، التى تفصل بين الناس ، قومية أو وطنية أو لغوية أو لونية أو طبقية ، ولم يبق إلا إخوة الإسلام ، ونسب الإسلام .

أبى الإسلام لا أبٌ لى سواه إذا افتخـروا بقيسٍ أو تميم

وفى دور الإخوان ترى المهندس والعامل ، والطبيب والتمورجى ، والمدرس والفلاح ، وابن الذوات وابن البلد ، والشيخ والشاب ... وهكذا من كل الفئات ، وكل الأعمار ، ولا تجد بينهم إلا الأخوة التى كانت قبل بين أصحاب رسول الله ﷺ ، على تفاوت أجناسهم وألوانهم وأنسابهم وطبقاتهم ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

ولقد كان المركز العام للإخوان فى القاهرة ملتقىً عالَمياً ، وبوتقة تُصهر فيها كل الجنسيات ، ولا يبقى إلا رباط العروة الوثقى ، وكلمة التقوى ، كلمة الإسلام .

ففيه كنتَ ترى العربى والعجمى ، والإفريقى والآسيوى ، والشامى والمغربى ، والأبيض والأسود ، والأصفر والأحمر ، جاءوا من مختلف الأوطان ، وحملوا شَتَّى الجنسيات ، وتكلموا بمختلف اللغات ، وربما كان بين دولهم بعضها وبعض خصومات ونزاعات ، ولكنهم هنا « إخوة أشقاء » فى « دار العائلة » ورمز الوحدة الإسلامية : دار الإخوان .

وكثير منهم مَنْ اندمج فى إخوانه المصريين حتى غدا واحداً منهم ، وإن كان يحمل فى الأصل جنسية أفغانية أو عراقية أو هندية ، أو غيرها .

---

(١) الحجرات : ١٠ .

أذكر من هؤلاء الأخوة الأفاضل : عبد الله العقيل ، وهارون المجددى ، ومحمد مصطفى الأعظمى ، وقد دخل الأخيران السجن الحربى سنة ١٩٥٤ مع إخوانهم المصريين ، وذاقوا من العذاب بعض ما ذاقوه ، ولم تغن عنهم جنسياتهم أمام الطغيان الناصرى الرهيب .

وقد حدثنى الداعية الإسلامى الكبير الدكتور مصطفى السباعى - رحمه الله - أنه زار أوروبا للعلاج مما أصابه فى سنواته الأخيرة من الشلل ، فما يكاد ينزل من الطائرة فى بلد إلا وجد شباباً من مختلف الجنسيات ينتظرونه ، وقد هيأوا له كل ما يريد ، وفوق ما يريد . يقول وهو يبكى : والله ما أعرف منهم أحداً ، ولا لقيتهم ولا لقونى من قبل . ولكنها أخوة العقيدة ، ورابطة الدعوة - لا حرمنا الله من بركاتها - جعلتنى أشعر كأنهم أصدقائى منذ سنين طويلة .

ولا ريب أن نعمة الأخوة فى الله ، والمحبة فى ذاته ، والارتباط على دينه ، من أعظم ما مَنَّ الله به على عباده من الإيمان . وهى ثمرة من ثمراته . قال تعالى يخاطب المؤمنين فى المدينة : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ (١) .

وخاطبَ رسوله ممتناً عليه بأخوة المؤمنين من حوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد عرفت الحياة ، وعرف الناس أفراداً وجماعات كانت بينهم صُحبة وصلة ومودة وألفة ، ولكنها كانت لدنيا ، فلم يُكتب لها الدوام ، إنما التقوا على شهوة حسيّة ، أو متعة مادية ، فلما قضوا الشهوة ، أو فرغوا من المنفعة أو يئسوا منها ، أصبح جمعهم شتاتاً ، وربما أصبحت مودّتهم خصومة وعداوة ، بخلاف

---

(١) آل عمران : ١٠٣ . (٢) الأنفال : ٦٢ - ٦٣

الحب فى الله ولله ، فإنه باق ما بقى وجه الله سبحانه ، ولهذا قيل : « ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل » .

وأوثق ما كانت هذه الأخوة ، وأشد ما كاننت قوة وفتوة ، فى أيام المحن وساعات الشدائد والفتن . التى تُمتحن فيها العلاقات ، ويُعرف فيها المحب المخلص من المداهن الكاذب ، كما قال الشاعر :

جــزى الله الشدائـــد كــل خيرٍ عــــرفتُ بها عَـــدُوى من صديقى

وعن الإمام علىّ رضى الله عنه :

ولا خيــر فـــى ود امرئ متلون إذا الريــح مالت مال حيث تميــل

جواد إذا استغنيتَ عن أخذ ماله وعنـــد زوال المال عنـــك بخيـــل

فما أكثـــر الإخـوان حين تعدهم ولكنهـــم فـــى النائبات قليـــل

ولقد أبرزت محن الإخوان المتلاحقة من ذلك العَجب العُجاب . فكم من رجال أكلت السياط (الكرابيج) من لحومهم حتى شبعت ، وشربت من دمائهم حتى ارتوت ، وهم صامتون لا يريدون أن يدلُّوا على إخوان لهم . وربما أدَّى طول صمتهم إلى أن فاضت أرواحهم فى « زنازين » العذاب ، راضية قلوبهم ، حتى لا يؤذوا إخوانهم بسبب كلامهم .

وكم من شباب حمَّلوا أنفسهم فوق ما يطيقون من العذاب ليبرئوا ساحة غيرهم ، ممن يعلمون أنه أكثر عيالاً ، أو أقل احتمالاً .

وكم من شباب كانوا خارج الاعتقال معافين لا يعرف عنهم أحد شيئاً ، عَزَّ عليهم أن يتخلوا عن أُسر إخوانهم بعد اعتقالهم ، فنظموا شبكة منهم لجمع تبرعات واشتراكات ، لإرسال معونات دورية إلى تلك البيوت التى فقدت عائلها ، فافتقرت بعد غِنىً ، وذلَّت بعد عِز ، وبهذا عرَّضوا أنفسهم للملاحقة فالاعتقال فالتعذيب فالمحاكمة ، فالسجن المؤبد والمؤقت مع الأشغال .

ولم يمنع القبض على هؤلاء أن يظهر غيرهم من بعدهم ، فلم يكن سائغاً بحال فى منطق الإخوان أن يتخلى الأخ عن أولاد أخيه فى محنته ، وليكن ما يكون ..

ولقد رأت زنازين السجن من معانى التعاون والإيثار ما تضيق به الصفحات . فقد كانت الأطعمة والملابس - بعد فترة البحبحة - تأتى لبعض الموسرين ، فتوزع على مَنْ معه ومَنْ حوله ، وقد يناله منها شئ كأحدهم ، وقد لا ينال .

ولا يعرف قيمة هذه الروح ، ونعمة هذه الأخوة ، إلا مَنْ عرف كيف يعيش غير الإخوان فى سجونهم .

أذكر فى سنة ١٩٤٩ حين كنا فى معتقل هايكستب .. أن جماعة من الشيوعيين كانوا بجوارنا ، فكانوا يتشاجرون على أدنى شئ : يعيش كل منهم لنفسه فقط . ومَنْ جاءه شئ فهو له ، وقد قسّموا الحجرة التى ينامون فيها بالسنتيمتر . وكل واحد عليه تنظيف نصيبه ، لا يزيد ولا ينقص . ومع هذا لا تراهم إلا متنازعين متخاصمين .

* * *

خاتمة

لا تحسبنّ أخي القارئ - أنني أزعم أن الإخوان المسلمين ملائكة مطهّرون ، أو أنبياء معصومون . فالإخوان كغيرهم من الناس ، بَشر عاديون ، يخطئون ويصيبون ، ويعثرون وينهضون ، وهم كسائر أبناء هذه الأمة المصطفاة التى أورثها الله الكتاب : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) .

ولا تعجب بعد هذا أن تجد بين الإخوان مَنْ لا يعرف من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ! وساعد على هذا ازدياد عدد المقبلين على الدعوة فى بعض الفترات ، وخاصة فى أوائل الخمسينات ازدياداً فاق الطاقات التربوية التى تستطيع أن تستوعبه وتوجهه وتصهره فى البوتقة الإسلامية . ولم يكن فى وسع الجماعة رد مَنْ يُقبل عليها ، وإن كانت ترى فى سلوكه ما لا يليق بالمسلم ، لأنها كانت تعتبر دُورها « مستشفيات » للعلاج ، أو « ورشاً » للتصليح ، يدخلها المكسر والمعوج ، ليخرج صالحاً مستقيماً .

ولا ننسى أن الحركات فى فترات ازدهارها وإقبالها يدخلها كثير من الطامعين ومرضى القلوب ، الذين لا يريدون إلا الدنيا ومظاهرها ، ممن يقولون آمنا بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، وهؤلاء لم تسلم منهم دعوة ، ولم يخل منهم مجتمع ، حتى مجتمع المدينة فى عصر النبوة .

فمَنْ زعم أن مجتمع الإخوان مجتمع مبرأ من العيوب ، نظيف مائة فى المائة ، فقد جهل الإخوان ، وجهل الواقع ، وجهل التاريخ .

---

(١) فاطر : ٣٢

غاية ما نقوله : إنَّ الإخوان المسلمين فى مجموعهم كانوا يمثلون الصفوة من أبناء هذه الأمة ، تحرر عقول ، وطهارة قلوب ، وزكاة أنفس ، واستقامة أخلاق ، ونظافة سلوك ، وحماساً لدين الله ، وحباً لخير الناس ، وغيرة على الإسلام ، وعملاً على استعادة مجده ، وتحكيم شرعه ، وسيادة أُمته .

بَيْدَ أننا نقول بجوار ذلك : إنَّ الوسائل والمناهج التى اتخذها الإخوان للتربية والتكوين منذ خمسين عاماً ، قد آتت أكلها ، وأنتجت ثمراتها سنين عديدة ، ولكن آن الأوان لإعادة النظر فيها ، على ضوء الممارسة والتجربة الطويلة ، فقد تطعم أو تطور أو تغير .

وليس مضى نصف قرن من الزمان بالأمر الهين ، فقد تبدلت أوضاع ، وتجددت أفكار ، وتحولت قيم ، فى منطقتنا وفى العالَم كله .

وليس من المعقول أن يبقى كل قديم على قِدمه فى وسط عالَم سريع التغير . والإسلام إنما يعرف الثبات فى الأهداف والغايات ، ويعرف المرونة والتطور فى الوسائل والآلات .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إلاَّ بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١) .

* * *

(١) هود : ٨٨

محتويات الكتاب

رقم الإيداع
١٨١٠ـ١٩٧٩
I. S.B. N
٨-٧٦ـ٧٢٣٦
طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :
(١) شمول الإسلام .
(٢) المرجعية العليا فى الإسلام .. للقرآن والسنة .
(٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ، ومن التمائم والكهانة والرقى .
* سلسلة حتمية الحل الإسلامى:
(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا
(٢) الحل الإسلامى فريضة وضرورة
(٣) بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين
(٤) أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة .
* سلسلة فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة « فى الطريق إلى الله »
(١) الحياة الربانية والعلم .
(٢) النية والإخلاص .
(٣) التوكل .
* سلسلة عقائد الإسلام :
(١) وجود الله .
(٢) حقيقة التوحيد .
* سلسلة فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم :
(١) الصبر .. فى القرآن
(٢) العقل والعلم .. فى القرآن الكريم
* سلسلة رسائل ترشيد الصحوة :
(١) الدين فى عصر العلم .
(٢) الاسلام ... والفن .
(٣) مركز المرأة فى الحياة السياسية الإسلامية
(٤) النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه .
(٥) فتاوى للمرأة المسلمة .
(٦) جريمة الردة .. وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة
(٧) الأقليات الدينية ... والحل الإسلامى
(٨) المبشرات بانتصار الإسلام
* إسلاميات عامة :
- الحلال والحرام فى الإسلام .
- الإيمان والحياة .
- الخصائص العامة للإسلام .
- العبادة فى الإسلام .
- ثقافة الداعية .
- فقه الزكاة « جزآن » .
- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
- بيع المرابحة للآمر بالشراء ، كما تجريه المصارف الإسلامية
- غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
- رسالة الأزهر بين .. الأمس واليوم والغد .
- جيل النصر المنشود .
- نساء مؤمنات .
- ظاهرة الغلو فى التكفير .
- الناس والحق .
- درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا وكيف ننتصر ؟ .
- عالم وطاغية « مسرحية »
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
- عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .
- الوقت فى حياة المسلم .
- أين الخلل ؟
- الرسول والعلم .
- نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
- الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه
- فتاوى معاصرة « جزآن »
- شريعة الإسلام .
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
- قضايا معاصرة على بساط البحث .
- الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية
- المنتقى من الترغيب والترهيب «جزآن» .
- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- من أجل صحوة راشدة .
- الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
- الدين فى عصر العلم .
- فوائد البنوك هى الربا الحرام .
- كيف نتعامل مع السنة .
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
- تيسير الفقه .. « فقه الصيام» .
- لقاءات ومحاورات حول قضايا الاسلام والعصر .
- المدخل لدراسة السنة النبوية .
- يوسف الصديق «مسرحية شعرية» .
- قطوف دانية من الكتاب والسنة .
- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
- المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
- محاضرات الدكتور القرضاوى .
- ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده .
- دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى .
- السنة مصدر للمعرفة والحضارة .
- خطب الشيخ القرضاوى (جـ١) .
- دروس فى التفسير « تفسير سورة الرعد» .
- فى فقه الأولويات « دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة »
- الإسلام .. حضارة الغد
- الأمة الإسلامية .. حقيقة لا وهم .